دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء في العهد المكي
« دراسة تحليلية »

للدكتور/ علي بن أحمد الأحمد[1]

تمهيد:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. أما بعد:

فبتأمل دعوة النبي ﷺ في العهد المكي نجد أنها مرت بمرحلتين مرحلة «الاستخفاء» ومرحلة «الجهر»[2]. وقد ابتدأت مرحلة الاستخفاء بالدعوة بعد النبوة مباشرة، روى ابن سعد عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة **مستخفيا**..»[3].

---

(١) عضو هيئة التدريس بقسم الدعوة والاحتساب ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) استمرت الدعوة في العهد المكي ثلاثة عشر عاما: ثلاثة أعوام هي مرحلة الاستخفاء وعشرة أعوام هي مرحلة الجهر. انظر: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ـ د. رؤوف شلبي، ط [الأولى، الناشر: دار القلم ـ الكويت]، ٢٩٨.

(٣) الطبقات الكبرى ـ لابن سعد، ط [الأولى، الناشر دار صادر ـ بيروت] ١/١٩٩.

واستمر رسول الله ﷺ بالاستخفاء بالدعوة إلى الله ثلاث سنوات، كما حدد ذلك ابن إسحاق وابن سعد وأبو نعيم وابن هشام وغيرهم[١].

ومرحلة الاستخفاء بما اشتملت عليه من مواقف وأحداث وأحوال تتصل بجانب الدعوة جعل لها أهمية خاصة يمكن إبراز بعضها من خلال الآتي:

١ - أنها بكامل تفاصيلها هي جزء متصل بسيرة النبي ﷺ وسبيله في الدعوة إلى الله تعالى.

٢ - قيام النبي الكريم ﷺ بخوض غمارها بوعي كامل ورؤية ثاقبة لما يحيط بالدعوة من عقبات وعوائق وفق مسلك حكيم أثمر بعد توفيق الله انطلاق الدعوة إلى العلنية والعالمية.

٣ - حاجة الدعاة إلى الله لتصور تلك المرحلة تصورا صحيحا بعيدا عن الارتجال والعواطف لإدراك ما تنطوي عليه تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر من أبعاد وآثار، في ظل تعدد التيارات والاتجاهات.

واستنادا لما سبق رأيت من المناسب دراسة هذه المرحلة وعرضها عرضا علميا يحلل جوانبها وفقا لما يتاح من علم في ضوء النصوص

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق، ط [الأولى الناشر: معهد الدراسات والأبحاث]. والسيرة النبوية لابن هشام، ط [الأولى، عام ١٤١١هـ الناشر: دار الجيل ـ بيروت] ت: طه عبدالرؤوف سعد ١/ ٢٤٩ والطبقات الكبرى ـ لابن سعد، ١/ ١٩٩.

الشرعية والحوادث والمواقف التي جرت في تلك المدة الوجيزة[١] سعيا لفهم موضوع الدراسة، فهما سليما يرتكز على نصوص شرعية وحقائق علمية.

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة مباحث وفق الفقر الآتية :

المبحث الأول: مرحلة الاستخفاء في ضوء النصوص:

المطلب الأول: دلالة نصوص القرآن الكريم.

المطلب الثاني: دلالة نصوص السنة الشريفة.

المطلب الثالث: دلالة أقوال الصحابة الكرام ﭫ.

المطلب الرابع: دلالة أقوال العلماء والمؤرخين رحمهم الله.

المبحث الثاني: معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء:

المطلب الأول: ميدان الدعوة في مرحلة الاستخفاء.

المطلب الثاني: وسائل الدعوة في مرحلة الاستخفاء وأساليبها.

المطلب الثالث: مضمون الدعوة في مرحلة الاستخفاء.

المطلب الرابع: أصناف المدعوين في مرحلة الاستخفاء.

المبحث الثالث: مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ وسماتها:

المطلب الأول: مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ.

المطلب الثاني: سمات الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ.

المبحث الرابع: تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر:

المطلب الأول: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية.

---

(١) قياسا بتاريخ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي استمرت ٢٣ عاما.

المطلب الثاني: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات غير الدعوية.

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج.

المبحث الأول: مرحلة الاستخفاء في ضوء النصوص:

المطلب الأول: دلالة نصوص القرآن الكريم:

ألمح القرآن الكريم إلى استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى ضمن إشارة تفيد بدء تلك المرحلة وانتهاءها بقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١)، ولا ريب أن هذا يومئ إلى أن النبي ﷺ كان يدعو إلى الله خفية من قبل ذلك، فقد أخرج ابن جرير عن عبدالله بن عبيدة أنه قال: «ما زال النبي ﷺ **مستخفيا** حتى نزل ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه»(٢). قال الثعالبي في تفسيره: وقوله سبحانه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ معناه: «انفذ وصرح بما بعثت به»(٣) وقال الواحدي في هذا الصدد: «ولم يزل النبي ﷺ **مستخفيا** حتى نزلت: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾»(٤) وأشار الإمام البغوي إلى هذا المعنى بقوله: «أمر النبي ﷺ في هذه الآية

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ للإمام أبي جعفر الطبري، ط[الأولى، عام: ١٤٢٢هـ، الناشر: دار هجر ـ القاهرة] ت: د. عبدالله التركي، ١٤/ ١٤٣.

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ـ للثعالبي، ط[الأولى، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت] ٢/ ٣٠١.

(٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ للواحدي، ط [الأولى، عام ١٤١٥هـ الناشر: دار القلم ـ دمشق] ت: صفوان عدنان داودي، ١/ ٥٩٨.

بإظهار الدعوة»[(١)].

وكان قد أنزل عليه من قبل الأمر بالإنذار في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[(٢)] فاستمر ﷺ مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله ثلاث سنين مستخفيا قال ابن تيمية: «أول ما أنزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[(٣)] عند جماهير العلماء وقد قيل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ روي ذلك عن جابر، والأول أصح، فإن ما في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء وأن المدثر نزلت بعد، وهذا هو الذي ينبغي فإن قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة وبذلك صار نبيا، وقوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾؛ أمر بالإنذار وبذلك صار رسولا منذرا»[(٤)]. وهذا الإنذار وما يتطلبه من أمور كان في طور الاستسرار بالدعوة حيث كانت الدعوة بعد البعثة قائمة سرا كما تقدم إلى أن أمر الله نبيه ﷺ بالصدع بأمر الدعوة قال ابن الجوزي: كان رسول الله ﷺ يستر النبوة ويدعو إلى الإسلام **سرا**.. فلما مضت من النبوة ثلاث سنين نزل قوله

---

(١) معالم التنزيل ـ للإمام أبي محمد الحسين البغوي، ط[الأولى، عام: ١٤٠٩هـ، الناشر: دار طيبة ـ الرياض]. ت: محمد عبدالله النمر وآخرون ٤/٣٩٥.

(٢) سورة المدثر، الآيتان ١، ٢.

(٣) سورة العلق، الآية ١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ـ جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وابنه، ط [الأولى، عام: ١٤١٦هـ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة] ١٦/٢٢٥.

عز وجل: ﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾ فأظهر الدعوة[١].

وفي ضوء أقوال المفسرين حول الآية تتضح تلك الإشارة القرآنية إلى مرحلة الاستخفاء التي مر بها النبي ﷺ والتي تضمنت ستر النبوة والدعوة سرا.

المطلب الثاني: دلالة نصوص السنة الشريفة:

مما يشير إلى مرحلة استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله من خلال السنة النبوية ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله أن رسول الله ﷺ في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه في أوائل المرحلة المكية أنه قال له بعد أن أسلم: **«يا أبا ذر اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»**[٢].

وأخرج الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال لعمرو بن عبسة رضي الله عنه بعد أن أسلم: **«إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني..»**[٣].

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ لابن الجوزي ط [الأولى، الناشر: دار صادر بيروت] ٣٦٤/٢.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب: قصة زمزم. رقم الحديث: ٣٢٦١، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار السلام ـ الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث: ١٣٧٤. ط [الأولى، عام: ١٤١٩هـ، الناشر: دار السلام ـ الرياض].

وأخرج الإمام البخاري معلقا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال قال النبي ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته **فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل**»(١).

وروي أنه لما دعا عليا إلى الإسلام وطلب علي رضي الله عنه الإمهال قال له ﷺ: «**يا علي إذا لم تسلم فاكتم**»(٢).

وهذه النصوص تكشف واقع دعوة النبي الكريم ﷺ في أوائل البعثة وأنها كانت في طور الاستسرار.

المطلب الثالث: دلالة أقوال الصحابة:

إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة قد جاء ذكره صريحا على لسان بعض الصحابة، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه: «كنت ـ وأنا في الجاهلية ـ أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ **مستخفيا**..»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الديات باب: قول الله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا، رقم الحديث: ٦٣٨٥.

(٢) البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير، ط [الأولى، عام: ١٤١٩ هـ الناشر: دار هجر ـ مصر] ٣/٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث: ١٣٧٤.

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[(١)]: قال نزلت ورسول الله ﷺ **مختف بمكة..**»[(٢)]، وفي رواية عنه قال أنزلت ورسول الله ﷺ **متوار بمكة..**»[(٣)] وروى أبو جعفر بن أبي شيبة في «تاريخه»من حديث ابن عباس رضي الله عنه، أن عمر رضي الله عنه لما أسلم قال: «يا رسول الله **ففيم الاختفاء**؟ فخرجنا في صفين: أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر..»[(٤)].

المطلب الرابع: دلالة أقوال العلماء والمؤرخين المتقدمين:

قال ابن قيم الجوزية ضمن سياق عرض سيرة النبي ﷺوهديه: وأقام بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه **مستخفيا** ثم نزل عليه ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾، فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهر قومه[(٥)].

قال ابن الجوزي: كان رسول الله ﷺ **يستر النبوة ويدعو إلى الإسلام سرا**.. فلما مضت من النبوة ثلاث سنين نزل قوله عز وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا

(١) سورة الإسراء، الآية ١١٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ولا تجهر بصلاتك: رقم ٤٣٥٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: ولا تجهر بصلاتك: رقم ٤٣٥٣.
(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ للحافظ ابن حجر، ط [الأولى، عام: ١٤٠٧هـ، الناشر: دار الريان للتراث ـ القاهرة] ٤٨/٧.
(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد ـ للإمام ابن قيم الجوزية، ط [الرابعة عشر، عام: ١٤٠٧هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت] ٨٦/١.

تُؤْمَرُ﴾ فأظهر الدعوة[١].

وأخرج ابن سعد بإسناده عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ «يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين **مستخفيا إلى أن أمر بالظهور**»[٢].

قال ابن هشام: «وكان بين ما **أخفى رسول الله أمره واستتر به** إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه»[٣].

وساق الواقدي رحمه الله بإسناده أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث سنين من أول نبوته **مستخفيا** ثم أعلن في الرابعة»[٤].

ومن خلال ما سبق تتجلى مرحلة الاستخفاء والتي قد دعا النبي ﷺ خلالها كما سيتضح في المبحث التالي.

المبحث الثاني: معالم دعوة النبي في مرحلة الاستخفاء:

المطلب الأول: ميدان الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

من المعلوم أن النبي ﷺ قد قام بالدعوة إلى الله بعد البعثة مباشرة استجابة لأمر الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لكنه في تلك المرحلة كان غير مجاهر بالدعوة ولا صادع بها إذ لم يؤمر بذلك بعد، واستمرت دعوته ثلاث سنين على هذا المنوال، وأسلم على يديه عدد ممن أكرمهم

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ لابن الجوزي ٢/٣٦٤.

(٢) الطبقات الكبرى ـ لابن سعد ١/١٩٩.

(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ١/٢٤٩.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ـ للإمام ابن قيم الجوزية، ٣/٤٣.

الله بفضيلة السبق. ولم يكن ثمة مكان خاص بدعوته قبل دار الأرقم، وإنما حسب ما اتفق الحال، ويؤكد هذا أن كثيراً من العلماء يؤرخون إسلام بعض الصحابة بأنه كان قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، قال ابن سعد: «فإن جماعة أسلموا قبل دخوله ﷺ دار الأرقم»(١).

وحينما لاقى بعض المستجيبين للدعوة عذاباً وأذى اتخذ النبي ﷺ داراً يستخفي فيها مع المستجيبين للدعوة، وذلك تحديداً بعد حادثتين:

الأولى: فقد ذكر ابن إسحاق أنه كان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ـ علي بن برهان الدين الحلبي، ط[الأولى، عام ١٤٠٠ هـ، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت] ٤٥٦/١. وقد تتبعت عدداً ممن أرخ إسلامهم قبل دخول رسول الله دار الأرقم فوجدتهم ثلاثة عشر رجلاً وامرأتين وهم وفق ترتيب الأحرف:

- أبو حذيفة بن ربيعة القرشي رضي الله عنه.
- أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه.
- أسماء بنت عميس رضي الله عنها.
- حاطب بن عمر بن عبد شمس رضي الله عنه.
- رملة بنت أبي عوف رضي الله عنها.
- سعيد بن زيد رضي الله عنه.
- عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.
- عبدالله بن جحش الأسدي رضي الله عنه.
- عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب رضي الله عنه.
- عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة رضي الله عنه.
- عثمان بن مظعون رضي الله عنه.
- مسعود بن الربيع القاري رضي الله عنه.
- معمر بن الحارث الجمحي رضي الله عنه.
- واقد بن عبدالله التميمي رضي الله عنه.

انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبدالبر، ط [الأولى، عام ١٤١٢هـ، الناشر: دار الجيل ـ بيروت]. والإصابة في تمييز الصحابة ـ للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط [الأولى، عام: ١٤١٥هـ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت].

إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين فبينما سعد بن أبي وقاص ﷺ في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجه فهو أول دم أهريق في الإسلام ثم دخل ﷺ وأصحابه مستخفين في دار الأرقم بعد هذه الواقعة[(١)].

الحادثة الثانية: روى البلاذري أنه بينما كان رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة، هجم عليهما رجلان من المشركين، فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة، حتى خرجا فانصرفا .

تركت هاتان الحادثتان تأثيرهما على مسيرة الدعوة وعلى المستجيبين لها؛ ما حمل الرسول ﷺ إلى أن يأمر أتباعه بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأوضاع، فدخل هو وجماعة من أصحابه دارا خصصها للدعوة وهي للأرقم بن أبي الأرقم ﷺ وقد أسلم، وكان من أبرز وظائفها ما يلي:

أولا: مباشرة الدعوة مع المستجيبين لها ومن يرغب من الناس بالإسلام:

وظف النبي ﷺ هذه الدار لتكون ميدانا يتيح له تقديم الدعوة، فقد أخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده أن «خباب بن الأرت ﷺ أسلم قبل أن

---

(١) السيرة الحلبية ١/٤٥٦ .

يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، **وقبل أن يدعو فيها**»(١) في إشارة إلى أن أهم أعمال النبي ﷺ فيها هي الدعوة إلى الله.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده عن عثمان بن الأرقم أنه قال: «.. وكانت داره ـ أي الأرقم ـ بمكة على الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام **وفيها دعا الناس إلى الإسلام** وأسلم فيها قوم كثير(٢).

وأما من جاءت ترجمته من المدعوين أنه أسلم في دار الأرقم فمن أبرزهم:

- بنو أبي البكير بن عبد ياليل: فقد ذكرهم ابن سعد بقوله: «أسلم عاقل وعامر وإياس وخالد بنو أبي البكير بن عبد ياليل جميعا في دار الأرقم وهم أول من بايع رسول الله فيها»(٣).
- أم أبي بكر الصديق: هي سلمى بنت صخر قال ابن سعد: «أسلمت قديما في دار الأرقم بن أبي الأرقم وبايعت النبي ﷺ وماتت مسلمة». ذكره الحافظ الدمشقي وصاحب الصفوة وغيرهما(٤).
- مصعب بن عمير جاء في ترجمته أنه: دخل على رسول الله ﷺ دار الأرقم وكتم إسلامه، وكان يختلف إلى رسول الله سرا»(٥) وفي

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٥٧ .
(٢) المرجع السابق ٣/٢٤٣ .
(٣) المرجع السابق ٣/٣٨٨ والاستيعاب ١/١٢٤ .
(٤) صفة الصفوة ـ لابن الجوزي ط] الثانية، عام ١٣٩٩هـ الناشر: دار المعرفة ـ بيروت [ت: د. محمد رواس قلعه جي ١/٣٩٧ .
(٥) صفة الصفوة ـ لابن الجوزي ١/٣٩٠ .

الاستيعاب: بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم فدخل وأسلم وكتم إسلامه خوفا من أمه وقومه وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرا».

- طليب بن عمير ذكر ابن سعد والواقدي أنه «أسلم في دار الأرقم»(١).
- عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان: ورد في الطبقات أن عمارا قال: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله فيها فقلت ما تريد فقال لي ما تريد أنت فقلت أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه قال وأنا أريد ذلك قال فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا (٢).

ثانيا: التخطيط للدعوة:

ومن وظائف دار الأرقم أنها كانت ميدانا للتفكير في أحوال الدعوة وبحث سبل دعمها والحفاظ على مكتسباتها ولذلك ورد أن دعاء النبي ﷺ بأن يعز الله الإسلام ويؤيده بالأقوياء كان في هذه الدار فعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**»(٣) وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٢٣.

(٢) انظر: المرجع السابق ٣/٢٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجة بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» انظر السنن لابن ماجة المقدمة باب: فضل عمر بن الخطاب رقم ١٠٢ وقال الألباني: صحيح دون قوله خاصة. انظر: صحيح السيرة النبوية، ط[الأولى، عام: ١٤٢١هـ، الناشر: المكتبة الإسلامية ـ الأردن] ص/١٩٣.

هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» قال: وكان أحبهما إليه عمر[١] قد ورد أن تلك الدعوة كانت يوم الأربعاء وأسلم عمر يوم الخميس[٢]، ومما يشير إلى ذلك ما رواه أنس ﷺ أن عمر ﷺ لما كان من شأنه مع أخته وزوجها سعيد بن زيد ما كان ورغب في الإسلام خرج إليه خباب فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك.

«فأصبح فغدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم»[٣]، ودعيت دار الأرقم دار الإسلام[٤].

ولقد أعز الله الإسلام بعمر استجابة لدعائه، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»[٥] وقال: «كان إسلام عمر عزا، وهجرته نصرا، وإمارته رحمة. والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت

(١) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع، ط [الأولى، عام: ١٤٠٨هـ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت]. رقم: ٣٧٦٤. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. انظر: صحيح الترمذي ٢٠٤/٣ رقم ٢٩٠٧.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ـ شيخ الإسلام ابن تيمية، ط [الأولى، عام: ١٤١٤هـ، الناشر: دار العاصمة ـ الرياض] ٣١٢/٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب: المناقب باب: مناقب عمر بن الخطاب رقم الحديث: ٣٦١٦ وقال الألباني: حسن صحيح في تحقيقه مشكاة المصابيح للتبريزي، ط [الثالثة، عام: ١٤٠٥هـ، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت] ٣١٦/٣.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ٢٤٣/٣.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: مناقب عمر بن الخطاب رقم الحديث: ٣٤٠٨.

ظاهرين حتى أسلم عمر»[١].

نعم لقد كان إسلام الفاروق عمر ﷺ فتحا وعزا للدعوة قال ابن تيمية حول هذا المعنى: «وظهر من عز الإسلام في إمارته شرقا وغربا وفتح الشام والعراق ومصر وكسر عساكر كسرى وقيصر، ما تحقق به إجابة الدعاء»[٢].

ثالثا: توثيق المدعوين صلتهم بالله تعالى وتعليمهم:

من أهم وظائف دار الأرقم أنها ملتقى يتيح للنبي الكريم ﷺ تعليم أصحابه ﷺ ما يقربهم إلى الله وأن يقيموا الصلاة فيها بطمأنينة ولذا كان سعيد بن زيد ﷺ يقول: «استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في بيت مغلق ـ يشير إلى دار الأرقم ـ أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض».

يقول توماس أرنولد[٣]: تعد الفترة التي قضاها محمد ﷺ في هذه الدار

(١) المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم، ط[الأولى، عام: ١٤١١هـ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت] ٣/٥٧٤.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٦/٣١٢.

(٣) من كبار المستشرقين البريطانيين.. صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي، وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه، تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذا للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، ذاع صيته بكتابيه: «الدعوة إلى الإسلام» الذي ترجم إلى أكثر من لغة و«الخلافة»، كما أنه نشر عدة كتب عن الفن الإسلامي. انظر: قالوا عن الإسلام ـ د. عماد الدين خليل، ط [الأولى، عام: ١٤١٢هـ، الناشر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض] ص/٥٠.

فترة مهمة في الدعوة الإسلامية بمكة، حتى إن كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام بتلك الأيام التي كان الرسول ﷺ يبث فيها الدعوة بدار الأرقم لمن آمن به سرا حيث كان يعلمهم الإسلام، ويتلو عليهم ما أنزل من القرآن، ويستمع لأخبارهم، وينظر في أمر دعوتهم.

وهذا السياق إضافة إلى غيره من الأخبار يدل على أنه ﷺ استمر مستخفيا هو وأصحابه في دار الأرقم والقيام فيها بما سبق ذكره من مهام ووظائف دعوية إلى أن أمر بإظهار الدعوة حيث أعلنها في السنة الرابعة(١).

المطلب الثاني: وسائل وأساليب الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

لا ريب أن النبي ﷺ لم يكن مخاطبا إبان تلك المرحلة بأن يبلغ الدعوة جهرا للناس، ولا أن يحتسب على المنكرات الشركية وغيرها في المجتمع الجاهلي، ولذا لم يستلزم الأمر اتخاذ وسائل كالخطابة، وإرسال الدعاة، وكتابة الرسائل.. كما هو الأمر أثناء الدعوة الجهرية، بل تبلورت الدعوة في هذه المرحلة بما يتطلبه حال الخفاء والاستسرار من جهة، ومن جهة أخرى فقد أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر على الأذى وبالهجر الجميل، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾(٢)، كما أمر بهجر

---

(١) وقيل مدة استخفائه ﷺ أربع سنين وأعلن في الخامسة، وقيل أقاموا في تلك الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون، وقد يقال الإقامة شهرا مخصوصة بالعدد المذكور فلا منافاة وإعلانه ﷺ كان في الرابعة أو الخامسة بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ انظر: السيرة الحلبية ١/٤٥٧.

(٢) سورة المزمل، الآية ١٠.

الرجز، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[١]: وهي الأصنام والأوثان[٢].

وهذان الاتجاهان يدلان على أن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة يقوم على ركيزة مهمة وهي ألا يلفت الأنظار إلى الدعوة، وألا يؤجج الخصوم ضدها، ولهذا انتهج مسلك الدعوة الفردية الذي كان الخيار الممكن له ﷺ في ظل الأوضاع والظروف التي سادت مكة آنذاك. حيث مبناها على الاتصال القوي بين الداعي والمدعو، ومما يشير إلى ذلك اتصال النبي ﷺ بأفراد من المدعوين الذين كانوا يقصدونه في دار الأرقم وقد مر ذكرهم، أو من كان يقصدهم هو ﷺ كخباب بن الأرت ﷺ الذي كان قينا يطبع السيوف ففي الخبر أن رسول الله ﷺ كان «يألفه ويأتيه..»[٣].

وهي مهمة شاقة بحاجة إلى دقة في التعامل مع النفوس، وصبر والتزام كبيرين، ولا يقوم بحقها إلا من يسر الله له وفتح عليه، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بها بنفسه في تلك المرحلة قدر استطاعته من خلال وسيلتين وهما:

---

(١) سورة المدثر، الآية ٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للإمام الطبري، ط [الأولى، عام: ١٤٠٧هـ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت] ١/ ٥٣٩ .

(٣) فأخبرت مولاة خباب بذلك، فكانت تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اللهم انصر خبابا»، فاشتكت مولاته أم أنمار رأسها، فكانت تعوي مثل الكلاب، فقيل لها: اكتوى، فكان خباب يأخذ الحديدة المحماة فيكوي بها رأسها .

أولا : القدوة الحسنة :

من الواضح لكل متأمل ما كان عليه المصطفى من خلق كريم وسيرة نبيلة حتى كان لهذا الأمر تأثيره البين في استجابة المدعوين (السابقين) إلى الإسلام أمثال خديجة وعلي وزيد ﭫ وغيرهم ممن سبق، إذ كانت معرفتهم لرسول الله ﷺ عن قرب ومعاشرتهم له واطلاعهم على كريم خلقه وعظيم شخصيته الإنسانية كان له الأثر الواضح في تصديقهم فيما يدعو إليه وإيمانهم برسالته في مرحلة الاستخفاء، ولهذا لم يطالبوه بالمعجزة ولم يناقشوه بالدليل استنادا لاطمئنانهم التام بصدقه الذي لا يدع مجالا للشك، فهم لم يعهدوا على رسول الله ﷺ كذبة واحدة طيلة معاشرتهم له، ولم يلحظوا على أخلاقه الكريمة ملحظا ذا ريبة .

وما يؤكد ذلك أن أبا طالب قال لعلي بعد أن أجابه على سؤال عن دينه الجديد الذي دعاه إليه محمد ﷺ: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه[1].

ثانيا : القول المباشر :

وقد قدم الرسول الدعوة للأفراد بوسيلة القول المباشر، كما يتجلى ذلك في هذه الدراسة بأسلوب النصيحة : وهو أسلوب يتفرع من مسلك الدعوة الفردية باعتبار طبيعة الاستسرار التي تجمع بينهما، وقد بين النبي ﷺ هذا الأسلوب في دعوته لعمه حينما قال له : «.. **وأنت يا عم أحق من**

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للإمام الطبري ١/ ٥٣٩ .

بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه»[١].

المطلب الثالث: مضمون الدعوة في مرحلة الاستخفاء:

أولا: المضمون: من خلال تأمل دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء يتضح أنها ارتكزت على ثلاث موضوعات وهي:

(١) التوحيد: من المعلوم أن دعوة النبي ﷺ كان أساسها تحقيق العبودية لله سبحانه إذ هي الغاية من خلق الجن والإنس قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، وتوحيد الألوهية هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ولذا لما سأله عمرو بن عبسة ﷺ عن مضامين دعوته بقوله: وبأي شيء أرسلك؟ قال له النبي ﷺ: **«أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء»**[٣].

ولما دعا عليا ﷺ كانت دعوته بقوله: «فأدعوك إلى الله وحده والى عبادته وكفر باللات والعزى»[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وكان المقصود بالدعوة: وصول العباد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للإمام الطبري ١/ ٥٣٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث (٨٣٢).

(٤) سيرة ابن إسحاق ٢/ ١١٨.

إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده. وهو المضغة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. وإنما ذلك بعلمه وحاله كان هذا الأصل الذي هو عبادة الله: بمعرفته ومحبته: هو أصل الدعوة في القرآن(١).

(٢) العبادة (الصلاة): ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعا وكذلك أصحابه ولكن اختلف: هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل: إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

وذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد. قال ابن حجر: والذي يظهر لي ـ وبه تجتمع الأدلة السابقة ـ أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء كان هو وخديجة يصليان سرا (٢).

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليا يصليان مرة.

وكان سعيد بن زيد يقول: «استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلي إلا في

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ٦/٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق ١١٧/٢.

بيت مغلق ـ يشير إلى دار الأرقم ـ أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض» .

تلك هي العبادة التي أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأي عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور، وتغذى الأرواح .

(٣) صلة الأرحام: ومما يدل على ذلك: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة ﷺ قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: «كنت ـ وأنا في الجاهلية ـ أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: (أنا نبي) فقلت: وما نبي؟ قال: (أرسلني الله)، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: (أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء) قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: (حر وعبد)، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني..»[١].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو ابن عبسة، رقم الحديث: ٨٣٢ .

(٤) مكارم الأخلاق: من المعلوم أن دعوة النبي ﷺ انطلقت من كونها تدعو إلى مكارم الأخلاق ولذا فقد جاء في الحديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[(١)]، ولما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر رضي الله عنه فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق».

وهذه المحاور العامة التي كانت مضامين للدعوة النبوية في مرحلة الاستخفاء نلحظ فيها شمولا حيث تم تناول موضوعات الدعوة (عقيدة وشريعة وسلوكا)، وهي شعب اتسع تشريعها مع اتساع رقعة الإسلام وانتشاره في الآفاق.

المطلب الرابع: أصناف المدعوين في مرحلة الاستخفاء:

نظرا لأن مرحلة الاستخفاء لها خاصيتها وطبيعتها فمن غير المستغرب أن يقدم الرسول ﷺ الدعوة أولا على أقرب الناس إليه، ثم تتسع دائرة المدعوين شيئا فشيئا.. لتشمل عدة أصناف من المدعوين ولذا فبإجالة النظر فيمن دعاهم النبي ﷺ في ذلك الطور وباشر دعوتهم بنفسه[(٢)] يتضح أنهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رفعه «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وأخرجه البزار من هذا الوجه بلفظ «مكارم» بدل «صالح» انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١/٣٢٩٥.

(٢) وهذا القيد يخرج من نطاق البحث من جاء في ترجمتهم أنهم أسلموا دون تحديد من كان سببا في إسلامهم أو من تمت دعوتهم من قبل الصحابة الكرام كأبي بكر الذي أسلم على يديه عدد من الصحابة الكرام.

على النحو الآتي:

أولا: دعوة النبي أهل بيته:

اتفق أهل الأثر وعلماء السير على أن أول الناس إيمانا به ﷺ على الإطلاق خديجة رضي الله تعالى عنها كما نقله الثعلبي في تفسيره، وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين، ونقل ابن الأثير الإجماع على ذلك بقوله: خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة[١].

ثم تلا خديجة رضي الله عنها بقية أهل بيته قال الحافظ ابن كثير: إن أهل بيته ﷺ آمنوا قبل كل أحد: خديجة، وزيد، وزوجة زيد أم أيمن، وعلي رضي الله تعالى عنهم[٢]. أما بناته رقية، وأم كلثوم، وزينب، وفاطمة رضي الله عنهن فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن[٣]. وغالب الظن أنهن من أوائل المدعوات ولذا قال الحلبي في سيرته: «إن بناته الأربع كن موجودات عند البعثة ويبعد تأخر إيمانهن[٤].

• **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه ذكر ابن إسحاق أن علي بن أبي طالب جاء بعد إسلام خديجة بيومين فوجدهما يصليان فقال علي ما هذا يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى

(١) انظر: السيرة الحلبية ١/ ٤٣٢.
(٢) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٣٦.
(٣) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٣٦.
(٤) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٣٢.

الله وحده وإلى عبادته وكفر باللات والعزى. فقال له علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب. فكره رسول الله أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له يا علي: إذا لم تسلم فاكتم، فمكث علي تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله حتى جاءه، فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال له رسول الله: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد. ففعل علي وأسلم، ومكث علي يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم علي إسلامه[١] وأسلم وهو ابن عشر سنين[٢].

وروى ابن جرير بسنده عن يحيى بن عفيف قال: جئت زمن الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبدالمطلب فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجدا فسجدا معه .

فقلت: يا عباس، أمر عظيم! فقال أمر عظيم! فقال: أتدري من هذا؟ فقلت: لا، فقال: هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن أخي.

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق ١١٨/٢ .

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق ١١٨/٢ وفتح الباري لابن حجر، ١٧٤/٧ .

أتدري من الغلام؟ قلت: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب. أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي وهذا حدثني أن ربك رب السماء والأرض أمره بهذا الذي تراهم عليه وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

• **زيد بن حارثة وزوجته أم أيمن:** مولى النبي ﷺ قال ابن حجر: «وهو من بني كلب أسر في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فاستوهبه النبي ﷺ منها».

وتزوج زيد بن حارثة: أم أيمن، وكانت حاضنة النبي ﷺ ورثها من أبيه فولدت له أسامة بن زيد وعاشت أم أيمن بعد النبي ﷺ قليلا.

قال الحافظ ابن كثير: الظاهر أن أهل بيته ﷺ آمنوا قبل كل أحد: خديجة، وزيد، وزوجة زيد أم أيمن، وعلي رضي الله تعالى عنهم[١].

• **عمه أبو طالب:** وذكر محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من عمه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم هذا دين الله ودين ملائكته

---

(١) انظر: السيرة الحلبية ٤٣٦.

ودين رسله ودين أبينا إبراهيم أو كما قال بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه أو كما قال. فقال أبو طالب: يا ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما حييت(١)..

ثانيا: دعوة النبي ﷺ صاحبه:

من المعلوم أن أبا بكر ﷺ كان صديق النبي ﷺ في الجاهلية وكان النبي ﷺ قد بذل الدعوة له في أول الأمر فعن عائشة رضي الله عنها قالت خرج أبو بكر يريد رسول الله وكان له صديقا في الجاهلية فلقيه فقال يا أبا القاسم فقدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها فقال رسول الله إني رسول الله أدعوك إلى الله فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر ﷺ فانطلق عنه رسول الله وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورا منه بإسلام أبي بكر»(٢).

ثالثا: دعوة النبي ﷺ لمن توسم فيه الخير(٣):

كما دعا رسول الهدى في مدة استخفائه من توسم فيه الخير سواء ممن عرفهم أو ممن لم يعرفهم، فأجابه من هؤلاء جمع عرفوا في التاريخ

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك ـ للإمام الطبري ١/٥٣٩ .

(٢) انظر: حديث خيثمة بن سليمان بن حيدرة أبي الحسن الأطرابلسي، ط [الأولى، عام: ١٤٠٠هـ، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت] ت: د. عمر عبدالسلام تدمري ص/٢٥ .

(٣) من المعلوم أن هناك من الصحابة الكرام من أسلم مبكرا كسمية والمقداد وبلال، وما أثبت هنا يقتصر على من قام النبي بدعوته مباشرة من خلال قصة تدل على ذلك .

الإسلامي بالسابقين الأولين ومنهم :

- **عمرو بن عبسة السلمي:** قال عمرو بن عبسة ﷺ: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)(١).

ودعوة النبي ﷺ له تتضح من خلال ما رواه أبو أمامة ﷺ قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: (كنت ـ وأنا في الجاهلية ـ أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: (أنا نبي) فقلت: وما نبي؟ قال: (أرسلني الله)، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: (أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء) قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: (حر وعبد)، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: (إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني)..»(٢).

قال الإمام النووي: معناه: «إني متبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك فقال له: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين ونخاف

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه مسلم كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث: ١٣٧٤ .

عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني، وفيه معجزة للنبوة وهي إعلامه بأنه سيظهر»(١).

• **أبو ذر الغفاري:** ساق الحافظ البيهقي بإسناده عن أبي ذر ﷺ قال: «كنت ربع الإسلام أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع أتيت رسول الله فقلت: السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله»(٢).

ودعوة النبي ﷺ له تتضح من خلال ما رواه ابن عباس ﷺ بقوله: ألا أخبركم بإسلام أبي ذر قال قلنا بلى قال قال أبو ذر كنت رجلا من غفار فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتني بخبره فانطلق فلقيه ثم رجع فقلت ما عندك فقال والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر فقلت له لم تشفني من الخبر فأخذت جرابا وعصا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد قال فمر بي علي فقال كأن الرجل غريب قال قلت نعم قال فانطلق إلى المنزل قال فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرني عنه بشيء قال فمر بي علي فقال أما آن للرجل

---

(١) شرح صحيح مسلم ـ للإمام النووي ١/١٣٧٤ .

(٢) البداية والنهاية ٣/٣٤ .

يعرف منزله بعد قال قلت لا قال انطلق معي قال فقال ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة قال قلت له إن كتمت علي أخبرتك قال فإني أفعل قال قلت له بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه فقال له أما إنك قد رشدت هذا وجهي إليه فاتبعني ادخل حيث أدخل فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامض أنت فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ فقلت له اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني فقال لي: «يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل»(١).

- **عبدالله بن مسعود:** قال في الاستيعاب إن إسلامه كان قديما في أول الإسلام(٢).

ودعوة النبي ﷺ له تتضح من خلال قوله: «كنت أرعى غنما لعقبة ابن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال يا غلام هل من لبن؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب: قصة زمزم. رقم الحديث: ٣٢٦١، ط [الأولى، عام:١٤١٧هـ، الناشر: دار السلام ـ الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١. ومسلم كلاهما من حديث ابن عباس وأخرج مسلم وحده رواية عبدالله بن الصامت وبينهما تعارض ويرى القرطبي أن الجمع فيه تكلف شديد والقاعدة أن الأصح ما اتفق عليه البخاري ومسلم ولذا يلزم عند التعارض اعتماد رواية ابن عباس انظر: السيرة النبوية الصحيحة ـ أكرم ضياء العمري، ط [السادسة، عام:١٤٢٦هـ، الناشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض] ص/ ١٤٤.

(٢) الاستيعاب ١/ ٣٠٢.

قال قلت نعم، ولكني مؤتمن قال فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر ثم قال للضرع اقلص فقلص .

قال ثم أتيته بعد هذا فقلت يا رسول الله علمني من هذا القول قال فمسح رأسي، وقال: يرحمك الله، فإنك غليم معلم(١).

• **أم أبي بكر الصديق** رضي الله عنه: عن عائشة قالت لما اجتمع أصحاب النبي وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله في الظهور فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله جالس، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربا شديدا ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر فتكلم آخر النهار: فقال ما فعل رسول الله؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٦٢/١ وابن سعد في الطبقات ١٥٠/٣. وحسن إسناده الألباني انظر: صحيح السيرة النبوية ١٢٤.

أم الخير انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول ما فعل رسول الله فقالت: والله مالي علم بصاحبك فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح.. قال: فما فعل رسول الله قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فان لله علي ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله قال فأكب عليه رسول الله فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذه أمي برة بوالدها وأنت مبارك ادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار قال: فدعا لها رسول الله ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

• **مصعب بن عمير** رضي الله عنه: ودعوة النبي ﷺ له تبدو من خلال ما ذكره الواقدي بقوله: إن مصعب بن عمير بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٣/٢٥ .

الإسلام في دار الأرقم؛ فدخل وأسلم وكتم إسلامه خوفا من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرا، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر به قومه، فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوسا إلى أن خرج إلى أرض الحبشة في أول من هاجر إليها[١].

• **عمار بن ياسر:** قال ابن حجر: «وكان عمار من السابقين الأولين»[٢].

ومما يشير إلى ذلك قوله: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر»[٣].

• **صهيب** رضي الله عنه: ذكر ابن سعد أن أباه كان عاملا لكسرى، فسبت الروم صهيبا لما غزت أهل فارس فابتاعه منهم عبدالله بن جدعان، وقيل بل هرب من الروم إلى مكة فحالف ابن جدعان[٤].

ودعوة النبي ﷺ لهما تتضح من خلال ما ساقه ابن سعد بإسناده أن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: لقيت صهيب بن سنان رضي الله عنه على باب دار الأرقم، ورسول الله ﷺ فيها، فقلت: ما تريد؟ فقال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه. قال: وأنا أريد ذلك. قال:

---

(١) انظر: الاستيعاب ١/٤٦٤.

(٢) فتح الباري ٧/٩١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب، باب: إسلام أبي بكر الصديق رقم الحديث: ٣٥٦٨.قال الذهبي: ولم يذكر عليا لأنه كان صغيرا ابن عشر سنين.

(٤) فتح الباري ٤/٤١٢.

فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون فكان إسلام عمار وصهيب بعد بضعة وثلاثين رجلا [(١)].

المبحث الثالث: مفهوم الاستخفاء في دعوة النبي وسماتها:

بعد أن استعرضنا بعضا من معالم دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء من خلال إلقاء الضوء على ميدان الدعوة الوسائل والأساليب المناسبة التي اتخذها، وكذلك أصناف المدعوين الذين قدم لهم الدعوة؛ ينساق الحديث هنا إلى تبيان أمر دقيق وهو طبيعة الاستخفاء ومفهومه في مضمار الدعوة إلى الله.

وبالنظر إلى كتابات بعض المعاصرين حول موضوع الاستخفاء نجد أن هناك تنوعا في التسمية حيث أطلق عليها: «الاستسرار»، و«الاستخفاء»، و«الكتمان»وكلها ذات مدلول واحد.. وعلى أي حال إذا تجاوزنا حدود المصطلح الذي يتفق العلماء على أنه لا مشاحة في الاصطلاح إلى المعاني والحقائق التي تشتمل عليه الألفاظ نجد هناك عدة آراء في بيان طبيعة الاستخفاء ومفهومه، فمن مفهوم يميل لتوسيع دائرة استخفاء النبي ﷺ بالدعوة، إلى مفهوم يميل لتضييق تلك الدائرة، ومن مفهوم هو بينهما. وذلك حسب ما يعتمد عليه كل مفهوم من أحداث تؤيد ما يذهب إليه[(٢)].

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/٢٢٧.

(٢) انظر: دراسة في السيرة ـ للدكتور عماد الدين خليل ص/٦٤. وانظر: السيرة الحلبية، ١/٣١٩.

كما سيتضح في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي ﷺ بالدعوة ومناقشتها:

الفرع الأول: آراء بعض المعاصرين حول مفهوم استخفاء النبي ﷺ بالدعوة:

يمكن حصر اتجاهات المعاصرين التي تسعى إلى تفسير الاستخفاء وبيان مفهومه في ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: أن النبي ﷺ مكث في هذا الطور يدعو إلى الله سرا من يأنس به من الأقارب والأصحاب، ولا يجهر على الملأ بالدعوة إلى الدين الجديد.

بمعنى أن مدلول السر والاستخفاء في الدعوة الإسلامية يشمل سرية الدعوة نفسها، وسرية ممارسة ما أتت به هذه الدعوة من شعائر.

الاتجاه الثاني: يتمثل فيما ذكره الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه: (خاتم النبيين) الذي جاء فيه: «وقد يقول الرواة إن الاستخفاء كان نحو ثلاث سنوات، كانوا يستخفون بها في العبادة. وقالوا: إنها كانت في دار الأرقم ابن أبي الأرقم، ولكن يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة، فقد كان النبي ﷺ يعلن ما جاء به من نذير، وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي يستخفي به هو إقامة العبادة التي دعا إليها رب العالمين، ولذلك كان اضطهاد المؤمنين من الضعفاء، واضطهاد النبي ﷺ قبل أن يسلم حمزة وعمر».

أي: إن مدلول الاستخفاء في الدعوة حسب هذا المفهوم هو الاستخفاء بشعائر العبادة فقط، أي لا استخفاء في الدعوة نفسها.

الاتجاه الثالث: يتمثل فيما ذكره صاحب كتاب (الدولة الإسلامية) فقد جاء فيه ما نصه: «كان أمر الدعوة الإسلامية ظاهرا من أول يوم بعث به ﷺ. وكان في مكة يعرفون أن محمدا ﷺ يدعو لدين جديد، ويعرفون أنه أسلم معه كثيرون، ويعرفون أن محمدا يكتل أصحابه، ويسهر عليهم، ويعرفون أن المسلمين يستخفون عن الناس في تكتلهم، وفي اعتناقهم الدين الجديد، وكانت هذه المعرفة تشعر أن الناس كانوا يحسون بالدعوة الجديدة، ويحسون بوجود مؤمنين بها، وإن كانوا لا يعرفون أين يجتمعون، ومن هم هؤلاء الذين يجتمعون من المؤمنين».

أي: إن مدلول الاستخفاء في الدعوة حسب هذا المفهوم هو إخفاء المدعوين ممن استجابوا للدعوة، وإخفاء المكان والزمان اللذين يجتمع فيهما المدعوون، مع الحرص في الوقت نفسه على إظهار الدعوة إلى الدين على الملأ(١).

الفرع الثاني: مناقشة الآراء السابقة:

تناولت الاتجاهات آنفة الذكر استخفاء النبي ﷺ بالدعوة في محاولة لوضع إطار عام يتحدد من خلاله مفهوم الاستخفاء وينحصر فيه. وفي نظري أن الاتجاه الأول الذي مفاده أن استخفاء النبي ﷺ اشتمل على سرية

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية في صدر الإسلام وفقه الإسلام والعصر الحديث ـ د. محمد خير هيكل، ط [الثانية، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار البيارق ـ بيروت] ١/ ٣٧٩.

الدعوة وسرية ممارسة العبادة، هكذا بإطلاق؛ غير صحيح، حيث إن السرية لم تكن سرية مطلقة في كافة جوانبها، بل المتأمل للدعوة يتضح له أنها كانت تلوح وتخفى، وهي بعبارة أخرى سرية ذات انفتاح ومرونة، ولهذا سمح النبي ﷺ بخبر الدعوة أن يتسرب ويشتهر في مكة عن قصد في تلك المرحلة حتى نمى أمره عليه السلام إلى من كان خارج مكة كعمرو بن عبسة وأبي ذر الغفاري بل طلب ممن استجاب للدعوة أن يبلغ من وراءه وكان هذا في أوائل الدعوة.. ولهذا فإن هذه الرؤية لاستخفاء النبي ﷺ بالدعوة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح في ضوء ما ذكر.

وأما الاتجاه الثاني الذي يقرر أن الاستسرار كان خاصا بإقامة العبادة، وأن الدعوة لم يكن النبي ﷺ يستخفي في أمرها وأنها كانت معلنة، فهذا فيه نظر باعتبار دلالة النصوص التي تفيد العموم فعندما أمر النبي ﷺ أبا ذر بالكتمان بقوله: «يا أبا ذر اكتم هذا الأمر» فذلك يعم الأمرين معا الدعوة والعبادة، وروي عنه ﷺ أنه قال لعلي ﷺ: «يا علي إذا لم تسلم فاكتم» واتخاذه دارا في سبيل الخفاء والتي كان من وظائفها إقامة العبادة والدعوة إلى الله يفيد هذا المعنى، فقد أخرج ابن سعد في الطبقات بإسناده عن عثمان بن الأرقم أنه قال: أنا ابن سبعة في الإسلام أسلم أبي سابع سبعة وكانت داره بمكة على الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام وفيها دعا الناس إلى الإسلام وأسلم فيها قوم كثير[1]،

---

(١) الطبقات ٣/٢٤٣.

وبهذا يتبين أن حصر الاستخفاء بالعبادة غير دقيق بل الاستخفاء يضم الأمرين معا لكنه استخفاء غير مطلق كما سيتضح .

بينما تضمن الاتجاه الثالث أن الدعوة أمرها اشتهر من أول يوم البعثة وأن صيتها قد ذاع في مكة فهذا غير دقيق ولو كان كما قيل لما كان في استخفائه بالدعوة واستسراره بها عن الناس ثلاث سنين أي فائدة والنصوص التي تشير إلى مرحلة الاستخفاء والمتضمنة حرصه على كتمان الدعوة التي سبق بيانها ترد هذا الاتجاه لمن تأمل .

وبما أن الاتجاهات المشار إليها تحتاج إلى مزيد ضبط وتصويب يمكن أن نقول إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة الذي استمر ثلاث سنين يتبلور في أن الدعوة بادئ أمرها كان الاستتار أبلغ ما يكون ومع استجابة المدعوين الأقرب فالأقرب أخذت الدعوة تنفتح للمجتمع على نحو متدرج، مع السماح لخبرها أن يتسرب في مكة وأوديتها وشعابها، بل حتى إلى خارج مكة إذا ما رئيت المصلحة. واتخذ النبي ﷺ دارا غير معلنة لإقامة العبادة والدعوة إلى الله معا بعد أن حصلت مجابهات للمستجيبين من قبل الخصوم والأمر على ما ذكر. وبهذا المفهوم للاستخفاء الذي يتماشى مع النصوص والأحداث دخل الناس في دين الله حتى تمكنت الدعوة وانتشر أمرها.

المطلب الثاني : سمات الاستخفاء في دعوة النبي ﷺ :

وفي ضوء ما سبق من هذا البيان المجمل لمفهوم استخفاء النبي ﷺ يمكن عرض أبرز سمات الاستخفاء كما سيأتي :

المحور الأول: السمات العامة: هذا المحور يتناول سمات مرحلة

الاستخفاء العامة وبيان ذلك من خلال الفرعين التاليين:

الفرع الأول: الهدف العام من الاستخفاء: إن الهدف العام من استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إنما كان يدور حول محور سلامة الدعوة الإسلامية من أن تجهض في مهدها، مع السماح بإظهار الدعوة، بل عموم تلك المواقف تشير إلى أن الاستسرار بالدعوة هو في الحقيقة حرص على سيرها مطردا وهادئا تسير إلى القلوب بخطى ثابتة حتى تتمكن من الإعلام عن نفسها في الوقت المناسب بعد أن يؤمن بها عدد من الناس، وكانت الدعوة تنساب إلى النفوس الطيبة التي هيأها الله تعالى لهذا الأمر(١).

الفرع الثاني: التدرج في إعلان الدعوة: إعلان الدعوة جاء متماشيا مع الأحداث متدرجا مع المواقف وفق ما تقتضيه مصلحة الإعلان بصورة لا تلفت الأنظار إليها. قال الإمام الزهري رحمه الله: «دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرا وجهرا فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال، وضعفاء الناس، حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول»(٢).

قال الماوردي: «ثم تتابع الناس في الإسلام ورسول الله على استسراره وإن انتشرت دعوته في قريش»(٣).

---

(١) انظر: منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة ـ د. محمد أمحزون، ط[الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار السلام ـ القاهرة]. ص/١٤٩. والجهاد والقتال في السياسة الشرعية ـ د. محمد خير هيكل، ١/٣٨٨.

(٢) الطبقات الكبرى ١/١٩٩.

(٣) أعلام النبوة ـ لأبي الحسن الماوردي، ط[الأولى، عام: ١٩٨٧م الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت] ت: محمد المعتصم بالله البغدادي.

وقال ابن قيم الجوزية: «ودخل الناس واحدا واحدا في الإسلام وقريش لا تنكر ذلك»[(١)].

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من النساء والرجال.. حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به.. ولما أسلم هؤلاء النفر وظهر أمرهم بمكة أعظمت ذلك قريش وغضبت له[(٢)].

قال ابن هشام: فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم قال الله له ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وقال له: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[(٣)] [(٤)].

المحور الثاني: السمات الخاصة:

وهذا المحور يتناول سمات مرحلة الاستخفاء التي تتصل بأسس الدعوة وبيان ذلك من خلال الفروع التالية:

الفرع الأول: المدعوون:

- الاستخفاء غلب على من كان يخشى على نفسه: مما يجلي استخفاء النبي ﷺ بالدعوة فيما يتصل بالمدعوين أن غالبهم ممن يخشى على نفسه

(١) زاد المعاد - لابن قيم الجوزية، ٢/٤٧ .

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق ٢/٩٧ .

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٤ .

(٤) السيرة النبوية - لابن هشام ١/٢٤٩ .

إشهار إسلامه كان له أن يخفي ذلك، وألا يعلنه وهذا يتيح له الأمن على نفسه. وأما من لم يكن يخشى على نفسه إما لعزته وقوته، وإما لوجود منعة تحميه، فإنه كان لا يبالي بأن يشهر إسلامه. فقد أخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: «أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس..»[(١)]. ولذا كان إخفاء المدعو عن نفسه بأنه دخل في الإسلام، أو إعلان ذلك إبان مرحلة الاستخفاء إنما كان يرجع إلى المدعو نفسه الذي هو عادة أدرى بخاصة نفسه.

ـ **استخفاء المدعو كان باختياره:** لم يكن النبي ﷺ يأمر المدعو بأن يخفي أو يعلن أمر إسلامه على وجه الإلزام وهذا يتضح من قوله ﷺ لأبي ذر ﷺ: «اكتم هذا الأمر». وقد فهم أبو ذر ﷺ أن مبعث هذا الأمر هو الحذر من أن يناله مكروه من كفار قريش إذا علموا بإسلامه، وهو الغريب عن مكة، وليس له فيها من يحميه بدليل ما جاء في الرواية الثانية التي أوردها البخاري أيضا لهذه القصة، فقد جاء ما نصه فيها: «ارجع إلى قومك، فأخبرهم، حتى يأتيك أمري»[(٢)]. فالإخبار هنا صدر بصيغة الأمر، وهو يشمل إخبار قومه «قبيلة غفار» بأمر الدعوة، وبأمر إسلامه..

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناده حسن.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، رقم الحديث: ٣٨٦١.

ومن هنا كان فهم أبي ذر أن الأمر بكتمان إسلامه في مكة إنما هو لمجرد الشفقة عليه، وليس أمر إلزام، ولذا لم يجد حرجا أن يعلن للرسول ﷺ عن عزمه على إظهار إسلامه على الملأ من قريش ، قال ابن حجر: «وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ له بالكتمان ليس على الإيجاب بل على سبيل الشفقة عليه ، فأعلمه أن به قوة على ذلك ، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك»[١]. فعمد أبو ذر ﷺ إلى المكان الذي تنتصب فيه آلهة قريش، وقريش تحت أقدام تلك الآلهة المزعومة، ورفع كلمة التوحيد[٢].

ـ **أما في جانب العبادة التي يقوم بها المدعو في هذه المرحلة**: فلا ريب أنها كانت تحت طائلة عقوبة قريش إن كانت على جهة الإعلان والتحدي لعقيدة الشرك السائدة في مكة. ولهذا كانت غالبا ما تؤدى في السر كما تقدم .

---

(١) فتح الباري ٧/١٧٤ .

(٢) حيث قال: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا فضربت لأموت فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار فأقلعوا عني فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس وأدركني العباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس. أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب باب: قصة زمزم. رقم الحديث: ٣٢٦١، ط [الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار السلام ـ الرياض]. رقم الحديث: ٣٢٦١.

ومما يتصل بهذا الجانب أن الدعوة إلى الله في طورها السري كانت تسير ببطء وتؤدة إذ رأينا أن الذين تمت دعوتهم هم عدد قليل جدا مقارنة بالمدة الزمنية للمرحلة التي استمرت قرابة ثلاث سنوات، رغبة في التركيز والاختيار البصير للمدعوين الذين يكونون أكثر قدرة على تحمل مسؤولية الإيمان وهو فعلا ما تحقق فيما بعد، فقد كان كل واحد من المدعوين لديه قدرة على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي تفتن المرء عن دينه إلا أن يشاء الله[1].

ـ **الدعوة اتسمت بالشمول فيما يتعلق بالمدعوين:** رسالة النبي ﷺ منذ انطلاقتها في هذه المرحلة إلى ختامها اتسمت بخاصية الشمول فمع أنه كان ﷺ يدعو أقرباءه اللصيقين به ومن كان يأنس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة من غير الأقارب على ضوء ما سبق إلا أن ذلك لم يخص فئة دون أخرى بل شمل الجميع، كما يتضح من التصنيف الآتي للمستجيبين وهم:

ـ الضعفاء: كان من المدعوين صهيب الرومي وبلال الحبشي وهما من أوائل من دخل في الدين الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي ولا فضل فيه لأحد إلا بالتقوى، وهذا يدل على أن دعوة النبي ﷺ تتسم بخاصية الشمول حتى وهي في طور الاستسرار

ـ الأقوياء: كما أن دعوة النبي ﷺ في هذه المرحلة شملت الأغنياء

---

(١) انظر: مجلة الوعي الإسلامي مقال بعنوان: تحليل الدعوة في عصرها المكي ـ د. عماد الدين خليل عدد: ١٠٠ عام ١٣٩٣هـ الكويت ص/ ٦٨.

والأقوياء والأشراف كأبي طالب من وجهاء قريش الذي لم يسلم وأبي بكر العزيز في قومه مالا ونسبا وعلما ومن استجاب له وهذا لا ينفي وجود الضعفاء أو الأرقاء في الصف الأول، ولكن الذي ننفيه أن يكونوا هم الغالبية كما يقرره كثير من الكتاب، لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة، ولو كانوا كذلك لكانت الدعوة في تلك المرحلة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب النفوذ وهذا لم يحدث. وإنما انتشر أمرهم أعني الضعفاء لأن تعذيبهم كان على الملأ ومن قبل الجميع، بينما امتنع الأقوياء بأقوامهم فمنهم من عذب ضمن قبيلته، ومنهم من كان مفتونا في أهله إكراما له ولهذا انتشر خبر إسلامهم وخفي خبر إسلام الأقوياء في بادئ الأمر. وإنه لمن القوة للدعوة أن يكون غالبية أتباعها في مرحلة الاستخفاء بالذات من كرام القوم الذين آثروا في سبيل عقيدتهم أن يتحملوا أصنافا من الهوان والعذاب ما سبق لهم أن عانوا مثلها .

ولا ريب أن سبق بعض الأرقاء والضعفاء إلى اعتناقه منذ الأيام الأولى هو دليل على شمولية الدعوة في مرحلة الاستسرار، ولو كانت ثمة إحصاءات لسكان أهل مكة يومئذ لوجدنا أن نسبة المدعوين الضعفاء الذين أسلموا إلى الضعفاء الذين لم يسلموا ليست بأكثر من نسبة الأشراف الذين أسلموا إلى غيرهم من أقوامهم ممن لم يسلم(١).

---

(١) انظر للتوسع: أضواء على دراسة السيرة ـ صالح أحمد الشامي ص/٧٩. والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ـ د. مهدي رزق الله ط [الثانية، عام: ١٤٢٤هـ، الناشر: دار إمام الدعوة ـ الرياض] ص/ ١٧٨.

ـ **الدعوة اتسمت بالعالمية فيما يتعلق بالمدعوين:** كما أن رسالة النبي ﷺ منذ انطلاقتها في هذه المرحلة إلى ختامها اتسمت أيضا بخاصية العالمية على قدر الوسع ففي مكة كانت الدعوة تسير بتؤدة وبخطى واثقة، كما كان يتطلع ﷺ في تلك المرحلة إلى نشر الدعوة في خارج مكة وبدا هذا واضحا في قصة إسلام أبي ذر بقوله «ارجع إلى قومك، فأخبرهم، حتى يأتيك أمري». ومما يشير إلى ذلك أيضا أن دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء لم تأخذ النمط القبلي والعشائري مع أن المجتمع المكي ـ شأن سائر الجزيرة العربية ـ يعتمد في تنظيمه على القبيلة التي تغرس في نفوس أبنائها مبدأ التناصر والتآزر(١).

وهذا الانفتاح المتوازن الذي أشرت إليه بالعالمية يدل عليه بصورة واضحة التطبيق العملي فالنبي ﷺ دعا أبا بكر وهو من تميم، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار، وعبدالله بن مسعود من هذيل، وعمار بن ياسر من عنس، وزيد بن حارثة من كلب، وأبا ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، ﷺ لقد كانت العالمية واضحة حتى في مرحلة الاستخفاء(٢).

ـ **المدعو من مهامه القيام بالدعوة:** إن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة لم يمنع المدعوين من القيام بدعوة غيرهم رغم سرية المرحلة؛ لأن الغاية هي

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة ـ أكرم ضياء العمري ١/١٣٣ .
(٢) انظر: المرجع السابق ١/١٣٣ .

إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولأجل هذه الغاية قام أبو بكر بعد استجابته بدعوة معارفه إلى الإسلام، وكان رجلا مآلفا محببا سهلا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عدد من الرعيل الأول وطليعة الإسلام خمسة من العشرة المبشرين بالجنة وهم: عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وزاد بعضهم سادسا وهو أبو عبيدة بن الجراح[١].

الفرع الثاني: ميدان الدعوة:

ومن السمات الخاصة لمرحلة الاستخفاء التي تتصل بأسس الدعوة ما ينم عنه ميدان الدعوة (دار الأرقم) الذي اتخذه ﷺ حينما تعرض عدد ممن استجابوا له للأذى، حيث بقي هذا الميدان الدعوي في الخفاء طيلة تلك المرحلة، ومما يدل على ذلك ثلاثة مواقف:

الأول: موقف علي مع أبي ذر رضي الله عنهما حين أراد أخذه إلى دار الأرقم لمقابلة النبي ﷺ والمتضمن إخباره بعدد من الاحتياطات التي توحي بسرية المكان آنذاك وهو ما يشير إليه قوله: « هذا وجهي إليه فاتبعني ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض..»[٢].

(١) انظر: السيرة الحلبية ١/ ٤٤٩.
(٢) سبق تخريجه.

وسياق هذه القصة كاملة في صحيح البخاري يوحي بجو الاستخفاء الذي كانت تعيشه الدعوة آنذاك، وتتجلى فيه سرية المقر الذي كان يقيم فيه الرسول ﷺ حيث يلتقي فيه بأصحابه، وبمن يريد مقابلته لبيان الدعوة الإسلامية التي يدعو إليها.

الثاني: موقف أم جميل مع أبي بكر ﷺ: عندما أخذت أم جميل وأم الخير أبا بكر إلى دار الأرقم بعد أن آذاه المشركون، فقد جاء في الرواية: «: فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به، يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله»[1].

الثالث: موقف إسلام عمر بن الخطاب ﷺ حيث ورد في سياق القصة أنه جاء إلى بيت أخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد ففوجئ بأن هذا البيت هو مكان من الأمكنة التي تعقد فيها حلقات تعليم الدين التي كان يقوم عليها خباب بن الأرت ﷺ. ثم لما وقع في قلبه الإسلام قال لخباب: «دلني يا خباب على محمد حتى آتيه، فأسلم، فقال خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه». مع أنه كان متوشحا سيفه يريد الفتك برسول الله ﷺ، دون أن يدري أين المكان الذي اتخذه عليه الصلاة والسلام مقرا للدعوة[2].

(١) البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير ٣٠/٣.
(٢) انظر: البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير، ٨٠/٣ والجهاد والقتال في الإسلام ـ د. محمد خير هيكل.

واتخاذ النبي ﷺ دار الأرقم تحديدا ميدانا للدعوة لأنه أبلغ في الاستخفاء وذلك لأمور تتضح في جانبين:

الأول: ما يتعلق بصاحب الدار: وهو الأرقم بن أبي الرقم بن الأسد ابن عبدالله بن عمر بن مخزوم رضي الله عنه وأبرزها ثلاثة أمور:

١- من المعلوم أن الأرقم رضي الله عنه لم يكن معروفا بإسلامه بادئ الأمر، فما كان يخطر ببال قريش أن يتم لقاء محمد وأصحابه في داره.

٢- أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه كان فتى عند إسلامه في حدود السادسة عشرة من عمره، ولهذا فإن الأذهان تنصرف عادة إلى منازل كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.

٣- قبيلة الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه هم بنو مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم التي ينتسب إليها النبي ﷺ، لذا يستبعد أن يختفي في قلب صفوف العدو(١).

الثاني: ما يتعلق بمكان الدار:

١- كانت دار الأرقم تقع على جبل الصفا بمكة(٢) وهي منطقة تكتظ

---

(١) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ط [الأولى، عام ١٣٩٦ هـ دار الوفاء - المنصورة] ص/ ٤٩.
أما مدة الاستخفاء فيعلن أحد الباحثين في السيرة النبوية عن ذلك بقوله: «.. وليس في كتب الأخبار، والسير، والتواريخ، تاريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم. فالروايات في ذلك مضطربة» دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ص٦٤. وانظر السيرة الحلبية، ١/٣١٩.

(٢) الطبقات ٣/٢٤٣.

بالمارة، وتشتد فيها الحركة بصورة طبيعية مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع في هذه الدار وتنفض منها .

٢- أن عملية الوصول إليها رغم سريتها لا يحتاج إلى كلفة أو مشقة[١].

الفرع الثالث: وسائل الدعوة وأساليبها:

من المعلوم أن الاستخفاء بالدعوة يتطلب اتخاذ وسائل وأساليب تتلاءم مع مقتضيات هذا الظرف، لذا كانت الوسائل التي اتخذها النبي ﷺ محدودة جدا، حيث اقتصرت على وسيلتي القدوة الحسنة، والقول المباشر من خلال مسلك الدعوة الفردية .

لذا يمكن القول أن الوسائل والأساليب في تلك المرحلة لم تكن أمورا ذات صبغة خاصة أو لها ما يميزها عن وسائل الدعوة وأساليبها في المرحلة الجهرية اللهم إلا من حيث الاقتصار على ما يناسب الاستسرار والاستخفاء، ولهذا لما انطلقت الدعوة إلى الجهرية اتسعت وسائلها تبعا لذلك .

الفرع الرابع: مضمون الدعوة:

بالنظر إلى مضامين الدعوة في حال الاستخفاء نجد أنها تمحورت في الأصل على موضوع التوحيد، لقد كان القرآن الكريم ينزل مؤكدا على ذلك، ولم يتجاوزه إلى المسائل الأخرى إلا قليلا وراح القرآن يحبك بأسلوبه المعجز وآياته البينات جوانبها الشاملة وبناءها في نفوس المدعوين

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ـ د. مهدي رزق الله ص/ ١٧٨. ومنهج النبي في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة ـ د. محمد أمحزون، ص/ ١٤٤.

الذين استجابوا للدعوة، ويحيلهم واحدا بعد آخر ويوما بعد يوم إلى شخوص حية تتحرك بما أنزل من قرآن فتكون حركتها تعبيرا حيويا عن التصور الجديد للعقيدة والذي جاء لينعكس بالضرورة على السلوك اليومي للمسلم(١).

وبالطبع فالدعوة كانت تتضمن إلى جانب العقيدة موضوع العبادة (الصلاة) وتناولت صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق ولم يكن ثمة أمر آخر يستدعي لفت النظر إليه في تلك المرحلة .

لذا يتأكد القول بأن مضمون الدعوة وجوهرها لم يتغير في مراحل الدعوة الأخيرة عن مراحلها الأول وكذلك حقائقها ومبادئها لم تتبدل مع تطور الدعوة وتغير مراحلها، بل كانت آخذة في استيعاب مناحي الحياة وما يتنزل من تشريع جديد .

واستنادا لما تقدم يمكن أن نقول إن سمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة تبلورت في أمور:

أ- السماح لخبر الدعوة والداعية ﷺ أن يتسربا بهدوء وبصورة متدرجة إلى أحياء مكة وشعابها وما جاورها من قرى إذا تحققت المصلحة وانتفت المفسدة مع أخذ الحذر والترقب، لذا في قصة إسلام أبي ذر

---

(١) انظر: مجلة الوعي الإسلامي مقال بعنوان: تحليل الدعوة في عصرها المكي - د. عماد الدين خليل عدد: ١٠٠ عام ١٣٩٣هـ الكويت ص/ ٦٨ .

وهو من غفار قال: فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، بل أمر النبي ﷺ أبا ذر بنشر خبره في غفار بقوله: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» في رواية أبي قتيبة «اكتم هذا الأمر، وارجع إلى قومك فأخبرهم، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل» وفي رواية عبدالله بن الصامت «إنه قد وجهت لي أرض ذات نخل، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك»(١).

ب ـ أن الدعوة في مرحلة الاستخفاء لم تتصادم ولم تتواجه مع الخصوم ولم تجلب لها أعداء، كل ذلك مراعاة لسلامة الدعوة لئلا توأد في مهدها.

ت ـ الأصل في الدعوة أنها تتسم في حال الاستخفاء بالشمول والعالمية، وقد يكون هناك تركيز واختيار مبني على بصيرة لأفراد يعتقد بأن الدعوة ستقوى وتنتفع بهم كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ث ـ أن المدعوين مطالبون من غير إلزام بإخفاء أمر استجابتهم إلى حين يكون فيه الإعلان يجلب للدعوة مصالح ومنافع.

ج ـ شعائر الدين الظاهرة كانت تتم في الخفاء لأمرين أولهما: كي لا يتعرف الخصوم على مدى الاستجابة التي تحققت للدعوة ومن ثم تشعرهم بالتوسع المطرد للدعوة. ثانيهما: تفاديا لكل ما يستفز خصوم الدعوة أو يثيرهم بظهور معالم الدعوة، في حين أن الدعوة

---

(١) تقدم تخريجه.

تتوخى السلم وتحذر المواجهة .

ح ـ مقر الدعوة الذي يكون موئلا للدعوة وملاذا لأتباعها غير معلن للمصلحة العامة إلا لمن يريد التعرف على الدين الجديد بعد التحقق من سلامة مقصده، لذا كان كثير من المدعوين لا يعرفون مقر الدعوة أنها دار الأرقم إلا من خلال التبيين والإرشاد، وقد تم اتخاذ هذه الدار تحديدا لكونها أليق بالاستخفاء كما تقدم.

خ ـ راعى النبي ﷺ بالنظر إلى واقع حال الدعوة أن ما يتاح له في ظل الاستخفاء هو مسلك الدعوة الفردية واتخذ لذلك وسيلة القدوة الحسنة، والقول المباشر فقط، ولم تعدد أساليب القول عن أسلوب النصح الذي ينسجم مع طبيعة الاستسرار .

تلك هي أبرز سمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة، وفي ضوء ذلك، وبعد توفيق الله تجاوزت الدعوة تلك المرحلة من خلال الغرس والتأسيس والإعداد حتى تهيأت لمرحلة الدعوة الجهرية امتثالا لأمر الله بالصدع قال ابن هشام: فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم قال الله له ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقال له: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1].

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ١/٢٤٩ ـ ٢٦١ .

المبحث الرابع: تطبيقات الاستخفاء بالدعوة في العصر الحاضر:

الأصل في الدعوة إلى الله الإعلان والبيان، والإظهار والإشهار في مختلف العصور وفي كل الأقطار. أما الاستخفاء بالدعوة فهي استثناء وأمر عارض، فما أن استجاب لهذه الدعوة نفر من الصحابة الأجلاء إلا وخرجت الدعوة من طورها السري إلى طورها الجهري وما أن وجد الرسول ﷺ أعوانا على الدعوة حتى جاءه الأمر بالجهر بالدعوة، قال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

بيد أنه من المهم معرفة مدى شرعية الاستخفاء بالدعوة في هذا العصر إذا لزم الأمر واقتضته الظروف. ولأجل تصور ذلك على وجه سليم لا بد من تصنيف المجتمعات من حيث إتاحتها للدعوة من عدمه إلى (مجتمعات دعوية) و(مجتمعات غير دعوية)، وأعني بالمجتمعات الدعوية تلك التي يسمح نظامها بالدعوة إلى الله تعالى ونشر الدين والخير بين الناس. وأما المجتمعات غير الدعوية فأعني بها تلك التي تقمع الدعوة وتحجبها عن الناس وتذيق دعاتها أصناف الأذى والعذاب سعيا لإبادتهم وما يحملون من رسالة، وهذا التأسيس مهم لننطلق منه إلى معرفة مدى شرعية تطبيقات الاستخفاء بالدعوة ـ موضوع الدراسة ـ في العصر الحاضر.

المطلب الأول: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية:

يمكن إيضاح ما يتعلق بالاستخفاء بالدعوة في المجتمعات الدعوية من

خلال الفروع الآتية :

الفرع الأول : الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) ابتداع في سبيل الدعوة:

إن المجتمع الذي يسمح بالدعوة بين أفراده لتسديد الخلل وتقويم المعوج من خلال الدعوة العامة المعلنة وفق تعاليم الكتاب والسنة ـ وهذا حال غالب بلاد الإسلام ـ يجعل أمر الاستخفاء بالدعوة بين مجموعة من الناس والاستسرار بها عن ولاة الأمر أو علماء المسلمين أو عموم المجتمع ؛ غير جائز ولا مقبول شرعا ولا عقلا ، ولا يقول ذلك إلا من يعتمد على القول بإلزامية «المرحلة السرية» استنادا إلى الأمر بالتأسي بالنبي ﷺ وهذا فهم غير صحيح وهو من البطلان ما لا يحتاج معه إلى إبطال ؛ لكنني أقول إنه مع تسليمنا الكامل بأن رسول الله هو القدوة والأسوة مطلقا إلا أن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة كان تفاعلا مع واقع كان قائما ، وقوانين كانت مسيطرة وبيئة كانت لها قيمها وعاداتها وتقاليدها ، وسنن اجتماعية وسياسية خاصة ، فأي عاقل يقول إنه مهما تغيرت الظروف والأوضاع يبقى موضوع الاستخفاء بالدعوة ملزما بينما حين يسمح للدعوة بأن تنطلق وتشق طريقها لا يبقي أي مسوغ للسرية ، لأنها في الحقيقة هي وسيلة وليست غاية[1] ، ولهذا فإن الاستخفاء بالدعوة كيفما تبلور والحال

---

(١) انظر: عثرات وسقطات ـ زهير سالم، ط[الأولى، عام: ١٤٠٨هـ الناشر: دار عمار ـ الأردن] ص/ ٢٩ .

ما ذكر هو انحراف في المنهج الدعوي وخلل في المسلك الإصلاحي باعتباره مخالفة صريحة لمنهجه العام في الدعوة ولوصيته الخاصة التي رواها عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني. قال: «اعبد الله ولا تشرك به شيئا، وأقم الصلاة، وآت الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت واعتمر، واسمع وأطع، **وعليك بالعلانية وإياك والسر**»[(١)].

فقوله ﷺ: «وعليك بالعلانية وإياك والسر» بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمر دليل على أن الاستخفاء بالدعوة في المجتمع المسلم، لا سيما إذا كانت منطوية على ما يخالف ولي الأمر أو متضمنة التأليب عليه؛ منهي عنه وإذا كان من يذهب إلى أن الاجتماعات السرية في هذا الزمن إلى أنه عمل صحيح، احتجاجا بأن النبي ﷺ بدأ بالدعوة في مكة سرا وهذا الاحتجاج مبني على أن المجتمع الذي نعيش فيه مجتمع جاهلي، أي كافر وهذا تعسف ومذهب فاسد، جميع علماء المسلمين على إنكاره، إذ لا يسلم العقلاء فضلا عن العلماء أن مجتمعنا مجتمع جاهلي كالجاهلية الأولى، بل نحن بحمد الله في بلاد الإسلام؛ الأذان معلن، والصلاة مقامة، والشعائر ظاهرة، والدعوة متاحة، فأين نحن من الجاهليين الأوائل

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم عن ابن عمر في كتاب السنة رقم الحديث: ١٠٧٠، وحسن إسناده الألباني في ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة، ط] الثالثة، عام: ١٤١٣هـ الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت [٢/٢٥٥.

ومن كفار العرب وغيرهم؟[١].

فالذي يتوجب إذن هو «الدعوة الجهرية» وقد أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالدعوة في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

بل يمتد هذا الفهم للحديث الشريف إلى موضوع أدق من الدعوة سرا وخفاء إلى كل ما يتناوله الاستخفاء ويشمله من موضوعات لها تعلق بأمر المسلمين العام للتواصي عليه دون العلماء وولاة الأمر فعن زيد بن أسلم العدوي عن أبيه ﷺ قال: « بلغ عمر بن الخطاب ﷺ **أن ناسا يجتمعون في بيت فاطمة**، فأتاها، فقال: يا بنت رسول الله ﷺ ما كان أحد من الناس أحب إلينا من أبيك، ولا بعد أبيك أحب إلينا منك، ولقد بلغني أن هؤلاء النفر يجتمعون عندك، وايم الله! لإن بلغني ذلك لأحرقن عليهم البيت. فلما جاؤوا فاطمة؛ قالت: إن ابن الخطاب قال كذا وكذا، فإنه فاعل ذلك، فتفرقوا حين بويع لأبي بكر ﷺ[٢].

ولقد كان هذا المسلك من سمات أهل الزيغ والأهواء في زمن مضى فقد روى الأوزاعي رحمه الله قال: قال عمر بن عبدالعزيز ﷺ: « إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم بشيء دون العامة؛ فاعلم أنهم على

---

(١) انظر: الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ـ د. عبدالسلام بن برجس، ط[الأولى، عام: ١٤١٨ هـ، الناشر: دار الوطن ـ الرياض].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في المذكر والتذكير، ط[الأولى، عام: ١٤١٣هـ الناشر: دار المنار ـ الرياض] ت: قاسم الردادي ١/ ٩١.

تأسيس ضلالة»[١].

وإذا تقرر ذلك فلا يشوش عليه حصول أذى في سبيل الدعوة من قبل المكابرين في (المجتمعات الدعوية) لأن هذا وارد وواقع في بعض الأمصار والابتلاء سنة ماضية إلى قيام الساعة لكن طريقة هذا الدين هي الدفع بالتي هي أحسن قال تعالى ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٢] والصبر الجميل على الكيد والأذى قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[٣].

وما ذكر ـ أعني منع الاستخفاء بالدعوة ـ يسري إلى كثير بل إلى غالب البلاد غير الإسلامية أيضا باعتبارها (مجتمعات دعوية) ولهذا ينبغي للدعاة الاستفادة من هامش الحرية المسموح به في أي دولة من دول العالم، من خلال القنوات الرسمية التي يسمح بها نظامها كالجمعيات، والمراكز، والاتحادات، تلك المؤسسات ينبغي للدعاة والمسلمين المبادرة إليها، واتخاذها مشاعل للهداية والدعوة، وطريقا لنشر دينهم وتمكين عقيدتهم[٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ط[الرابعة، عام: ١٤٠٥هـ الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت] ٣٣٨/٥. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ط[الأولى، عام: ١٤٠٢هـ الناشر: دار طيبة ـ الرياض] ت: د. أحمد سعد حمدان ١٣٥/١ .

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤ .

(٣) سورة المزمل، الآية ١٠ .

(٤) انظر: المسلمون والعمل السياسي ـ عبدالرحمن عبدالخالق، ٤٣ .

الفرع الثاني: الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمعات الدعوية) إضرار بالدعوة:

إن من نظر بعين الإنصاف للدعوات التي كان لها طابع السرية داخل المجتمعات الدعوية سواء في عدد من البلاد الإسلامية أم في غيرها؛ يقف على نتيجة حتمية هي إيقاع الضرر بالدعوة، وذلك من خلال أمرين:

أ- الإضرار بالدعوة نفسها: وأساس ذلك أن الاستخفاء يتسبب في انحراف فكر أتباعها تدريجيا ومن ثم سلوكهم وفق رد مسلك النظام القائم، وهذا التحول في الدعوة يأتي في النهاية نتيجة لأنها سارت في أنفاق مظلمة ردحا من الزمن حالت دون أداء وظيفة التصويب والتسديد التي تناط بالعلماء الراسخين.

والمتتبع للتاريخ الغابر - فضلا عن العصر الحاضر - يمكن أن يقول إنه متى وجد الغموض في الدعوة حلت المخالفات الشرعية، وحيث وجد التخفي؛ حل الخوف وذهب الأمن، وبذلك يتكرر خرق السفينة من المستهمين فيها أنفسهم لعدم رؤيتهم والأخذ على أيديهم، ثم تنتهي إلى الغرق. فيكون أول ضحايا الدعوة تلك هو؛ العمل الدعوي نفسه وليس الخصوم[1].

---

(١) انظر: نظرات في مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة، ط [الثانية، عام: ١٤٠٥هـ الناشر: مركز الدراسات والبحوث في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر].

ومن المعلوم أن الإسلام بجلائه وصفائه ونقائه، فوق هذا كله، لا مجال فيه لإخفاء حقيقة، ولا كتم طريقة، ولا غموض مسلك.

ب ـ تعطيل عملية البلاغ: حيث إن النكوص عن عملية البلاغ المبين والنزول إلى المخابئ وتغييب الدعوة وممارسة العاملين وسلوكهم عن الأنظار يعطل عملية البلاغ وهذا يؤدي إلى نمو غير الطبيعي للشر والفساد، ويوقف الحوار ويعطل شعيرة الدعوة والحسبة المناطة بالدعاة والمحتسبين.

إن وظيفة الدعوة تقتضي ألا يحتكر الدعاة دعوتهم في نطاق محدود فتكون بعيدة عن جماهير الأمة ومنفصلة عن جسمها وهدفها وإنما الدعوة يجب أن تنطلق في المجتمع بانطلاق دعاتها في ميادين الدعوة المتنوعة وأن تكون دعوتهم التي يمثلونها أنموذجا عمليا للحياة الإسلامية، وتمثل الإسلام بصورة واقعية لتجذب بسلوكها الجاهلين بحقيقة هذا الدين وتكون لهم دليلا ومرشدا ومعينا على دعوتهم إلى الخير كما قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1][2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(٢) انظر: نظرات في مسيرة العمل الإسلامي ـ عمر عبيد حسنة، ٤٠.

الفرع الثالث: الاستخفاء بالدعوة داخل (المجتمع الدعوي) سبب في تمزيق الأمة:

إضافة إلى أن الاستخفاء بالدعوة داخل المجتمع الدعوي ابتداع في سبيل الدعوة وإضرار بها، فكذلك هو أداة لتمزيق الأمة من وجهين:

أولا: مع الحكام ونخص منهم أصحاب الأنظمة التي تتسم بالجور، من خلال عدم تصورهم لأهداف الدعوة الحقيقية وحسن نية دعاتها ومن خلال عدم تثبتهم من الوشاية التي قد يكون مصدرها الخصوم ولهذا فهم يضربون بيد من حديد على كل من يظنون فيه السرية فضلا عمن يجزمون بممارسته لها وتطبيقه إياها خوفا من كون الاستخفاء بالدعوة مؤداه تأليب الناس عليهم أو قلب نظامهم استنادا إلى أن المنظمات السرية في تاريخ الأمم قديما وحديثا كان لها دور في ذلك والتاريخ غير نسي.

وإما أصحاب الأنظمة العادلة فتعمل الدولة على تحجيم الدعوة المشار إليها حينما تتسم بالسرية وربما معاداتها وإضعافها.

ثانيا: مع بقية المسلمين وذلك بإيجاد هوة عميقة بين الدعوة وبين بقية المجتمع، تزداد عمقا مع الزمن، وثغرة بين الطرفين تتسع بإلحاح كلما أوغلت الدعوة في الاستخفاء، نظرا لأنهم يكتمون عن الناس ما لا يجوز كتمه، ويخفون عنهم ما لا يجوز إخفاؤه، فتظلم النفوس وتسود القلوب تجاه الدعوة والدعاة[1].

---

(١) انظر: الدعوة إلى الله ـ علي حسن عبدالحميد، ط [الثانية، عام: ١٤١٣هـ الناشر: مكتبة الصحابة ـ جدة] ص/ ٦٨.

إن العمل الدعوي السري في المجتمعات الدعوية مهما كان فيه من نفع إلا أنه نفع يسير تتبعه مفاسد أعظم من النفع المتوهم أو المرجوح، فهو يجر الدعاة إلى مواقف محرجة هم في غنى عنها، ويوهن أمر الدعوة، بل ويوقع الأفراد المسلمين في تضاد بين مبدأ السمع والطاعة وبين التطبيق العملي لمبدأ السرية والخفاء وهذا التضاد خطير لأنه خلل في منهج الدعوة قد يكون سببا في تمزيق الأمة، لذا يجب على الدعاة تجنب الاستخفاء بدعوتهم في المجتمعات الدعوية، إذ الدعوة قد أعلنت، وانتشرت مبادئها، وعم صيتها العالم، وسمع بها القاصي والداني، من خلال المؤلفات والقنوات الفضائية، وشبكة المعلومات (الإنترنت)، والطلاب المبتعثين، والمؤتمرات الدولية، والملتقيات العلمية، لهذا كله لا يسوغ للدعوة أن تتخفى في المجتمعات الدعوية(١).

المطلب الثاني: الاستخفاء بالدعوة في المجتمعات (غير الدعوية):

انطلاقا من مضار الاستخفاء بالدعوة في (المجتمعات الدعوية) التي سبق ذكرها رأى البعض جر الحكم بالمنع إلى المجتمعات غير الدعوية بصورة مطلقة وقرر البعض أن الاستخفاء بالدعوة قد انتهى إلى الأبد بأمر الله النبي ﷺ بالصدع بالدعوة ..

---

(١) انظر: مدخل إلى علم الدعوة ـ د. البيانوني ص/ ٢٥٤. ونظرات في مسيرة العمل الإسلامي ـ عمر عبيد حسنة ص/ ٤٢ .

وهذا القول في رأيي قد جانب الصواب من حيث إلغاء وتعطيل جزء مهم من سبيل النبي ﷺ في الدعوة وهي «مرحلة الاستخفاء» في العهد المكي، وقد قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾، ومعلوم أن سبيله في الدعوة يشمل سيره في طريق الدعوة بمرحلتيها «السرية» و«الجهرية» وبعهديها «المكي» و«المدني»، باعتبارها حلقات متصل بعضها ببعض ترسم للدعاة المنهج الدعوي في كل حالاته، وتوضح للدعاة المواقف التي قد تعترض طريق الدعوة بكافة جوانبها، وهي تعد بجملتها سبيل النبي ﷺ في الدعوة إلى الله التي تستند إلى البصيرة.

هذا السبيل الدعوي لا يجري في مضمار الناسخ والمنسوخ بل كل مرحلة تنزل منزلتها التي تناسبها حينما تتطابق الظروف وتتشابه الأحوال.

قال شيخ الإسلام: «من كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين. وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»(١).

وفي ضوء ذلك يمكن أن نتساءل: أليس من الممكن أن يحتاج المسلمون في بعض الظروف والبيئات إلى أحكام مرحلة الاستخفاء التي استوعبها

(١) الصارم المسلول ـ شيخ الإسلام ابن تيمية، ط[الأولى، عام: ١٤١٧هـ، الناشر: دار ابن حزم ـ بيروت]٢/ ٤١٣.

النبي ﷺ بفهم واع ومسلك حكيم قاد إلى النجاح، وألا يكون في ظل الأنظمة القمعية للناس أن يستخفوا بدينهم وبدعوتهم تأسيا بالداعية الأول وتتبعا لسبيله؟ يمكن إيضاح ذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: تكالب أنظمة المجتمعات (غير الدعوية) على إبادة الدعوة وسبل البقاء:

أولا: **مشاهد من تكالب أنظمة المجتمعات (غير الدعوية):**

أسوق هنا مشهدين يدلان على حال شعوب إسلامية كانت ترزح في بلادها تحت وطأة الضيم (مجتمعات غير دعوية) جرت عليها محن ومآس استهدفت إبادتهم ووأد دينهم:

المشهد الأول: المسلمون في ظل نظام حكم أسبانيا:

تمثل محاكم التفتيش أحد أسوإ فصول التاريخ دموية تجاه المسلمين، وقد بدأت عندما حانت نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، وسقوط آخر مدينة إسلامية بيد الأسبان وهي غرناطة بعد أن استمر حكم المسلمين لها (٨٠٠ عام) للأندلس من دون انقطاع.

الذي حدث فيما يتصل بموضوع الدراسة أنه فور دخول الأسبان إلى غرناطة نقضوا المعاهدة التي أبرموها مع حكامها المسلمين والتي تضمنت ثمانية وستين بندا [(١)] وبعد أيام عدة من النقض قام أسقف غرناطة بإرسال

---

(١) منها: تأمين الصغير والكبير على النفس والمال والأهل، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، وأن تبقى لهم شريعتهم يتقاضون فيها، وأن تبقى لهم مساجدهم وأوقافهم.

رسالة عاجلة لملك أسبانيا مفادها أنه قد أخذ على عاتقه حمل المسلمين في غرناطة وغيرها من مدن إسبانيا على أن يصبحوا كاثوليكا؛ تنفيذا لرغبة المسيح عليه السلام الذي ظهر له ـ كما ادعى ـ وأمره بذلك. فأقره الملك على أن يفعل ما يشاء لتنفيذ رغبة المسيح عليه السلام، عندها بادر الأسقف إلى احتلال المساجد ومصادرة أوقافها، وأمر بتحويل المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، فثار المسلمون هناك دفاعا عن مساجدهم، لكن ثورتهم قمعت بوحشية مطلقة، وتم إعدام مائتين من العلماء المسلمين حرقا في ساحة من الساحات العامة بتهمة مقاومة المسيحية(١).

وتم تشكيل محاكم التفتيش لتبدأ بمهام البحث عن كل مسلم ومحاكمته على عدم تنصره، فهرب المسلمون إلى أعلى الجبال، وأصدرت محاكم التفتيش الإسبانية تعليماتها لتنصير بقية المسلمين في أسبانيا، وإجبارهم على أن يكونوا نصارى، وكانت محاكم التفتيش تصدر أحكاما بحرق المسلمين على أعواد الحطب وهم أحياء في ساحة من ساحات مدينة غرناطة، أمام الناس، كما صدر مرسوم بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت المصاحف وآلاف الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب في جميع المدن والقرى. وقد استمرت هذه الحملة الظالمة على المسلمين حتى عام(١٥٧٧م)، وراح ضحيتها حسب بعض المؤرخين

---

(١) انظر: مجلة الجندي المسلم، مقال للأستاذ: عبدالرحمن حمادي عدد ١٢٠ تاريخ ٢٠٠٥/٧/١م.

الغربيين أكثر من نصف مليون مسلم، وتم تنصير البقية الباقية من المسلمين بالقوة، وقد عرف المسلمون المتنصرون باسم المسيحيين الجدد تمييزا لهم عن المسيحيين القدامى[١] ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس.

ولما تبين للمحاكم أن كل أعمال التنصير في تلك الحملة لم تؤت نفعا، حيث تنصر المسلمون ظاهرا، ولكنهم فعليا يمارسون الشعائر الإسلامية فيما بينهم سرا؛ قامت المحاكم بالبحث عن كل مسلم لتحاكمه، وهي محاكم منحت سلطات غير محدودة، ومارست أساليب في التعذيب لم يعرفها أو يمارسها أكثر الطغاة وحشية عبر التاريخ، وقد بدأت تلك المحاكم أعمالها بهدم الحمامات العربية، ومنع الاغتسال على الطريقة العربية، ومنع ارتداء الملابس العربية، أو التحدث باللغة العربية، ومنع الزواج على الطريقة العربية أو الشريعة الإسلامية، ووضعت عقوبات صارمة جدا بحق كل من يثبت أنه يرفض شرب الخمر، أو تناول لحم الخنزير، وكل مخالفة لهذه الممنوعات والأوامر تعد خروجا على الكاثوليكية، ويحال صاحبها إلى محاكم التفتيش.

وحيث إن المحاكم والأساليب المتبعة لم تنجح في إجبار المسلمين على ترك دينهم كما تريد الكنيسة التي أدركت مدى عمق الإيمان بالعقيدة الإسلامية في نفوس (الموريسكيين) فقررت إخراجهم وتهجيرهم من

---

(١) عرفوا باسم (الموريسكوس) أي المسلمين الصغار.

إسبانيا، بينما بقي بعضهم متسترا في بلاده بعد الطرد العام لهم[١].

المشهد الثاني: المسلمون في ظل نظام حكم الاتحاد السوفيتي:

كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي خمسين مليونا من أصل مأتين وستين مليونا ويمثل المسلمون أغلبية في ستة أقاليم من أصل ستة عشرة تصل نسبتهم في بعضها ٩٥٪ وبالطبع تلاشت تلك الأعداد بعد أن تنكرت الشيوعية للمسلمين وعملت على القضاء على الإسلام من خلال عدد من الأساليب على المدى الطويل ففي عام ١٩٢٨م ألغيت المحاكم الشرعية، ومنعت سائر الأنشطة الدينية، واعتقل عدد من العلماء وشرد آخرون واشتدت حملات الإرهاب الشرسة على المسلمين فاعتقل أكثر من مليون ونصف المليون، وفي عام ١٩٢٩م هدم وأغلق أكثر من عشرة آلاف مسجد، وأكثر من أربعة عشر ألفا من المدارس الإسلامية، وحرقت المصاحف ونفي المسلمون من الجمهوريات الإسلامية التي تحت سيطرة النظام إلى مجاهيل سيبيريا ومن ثم توطين روس شيوعيين مكانهم[٢].

ولقد عمل النظام في الاتحاد السوفيتي في تلك الحقبة على أكبر عملية في التاريخ للقضاء على الإسلام بأساليب علمية وتكنولوجية حديثة، في

---

(١) انظر: مجلة الجندي المسلم عدد ١٢٠ تاريخ ٢٠٠٥/٧/١م مقال للأستاذ: عبدالرحمن حمادي.

(٢) انظر: محنة الأقليات المسلمة في العالم ـ محمد عبدالله السمان ط [الأولى، عام: ١٤٠٩هـ الناشر: دار الاعتصام] ٣٦.

مناخ بالغ القوة محكم الإغلاق وتحت نظام فاق جميع الأنظمة الاستبدادية التي عرفت في التاريخ الحديث. وتم سن قوانين تحرم على المسلمين الصلاة والصيام والحج والزكاة، ومنعت طباعة المصحف وأي كتاب ديني، وفرضت رقابة صارمة على تداول هذه الكتب وعلى منع ممارسة الشعائر الدينية .

كما أنشئت في المقابل مدارس لتعليم أطفال المسلمين أصول الإلحاد وسخرت الدولة عشرات الألوف من خبراء الإلحاد، وأصدرت ملايين النسخ من الكتب الإلحادية ومئات الصحف والمجلات والأفلام لمحاربة الإسلام وتشويه تاريخه واستطاعت الدولة الشيوعية أن تنشئ أجيالا من أبناء المسلمين لم يسمعوا كلمة طيبة عن الإسلام. وكان الشباب المسلم يعلم أن الإلحاد هو شرط الحصول على وظيفة ، وهو شرط البقاء والترقي فيها وهو شرط الإفلات من اضطهاد جهاز المخابرات. فأصبحت الكثرة الغالبة من أبناء المسلمين الذين خلفهم الاتحاد السوفيتي يجهلون كل شيء عن دينهم، ومع ذلك فإن جهود السوفييت في نشر الإلحاد بين المسلمين على مدى خمسة وسبعين عاما لم تؤت ثمارها المطلوبة ولم تستطع تحقيق أهدافها كاملة في استئصال الإسلام من الاتحاد السوفيتي، وقد عبر المخططون والخبراء عن خيبة أمل كبيرة .

ولذلك سخرت الدولة مجموعة كبيرة من علماء الاجتماع والدراسات السكانية خلال الثمانينيات من القرن العشرين لدراسة هذه الظاهرة في

مجتمعات المسلمين ، وقد أثبتت هذه الدراسة أن الإسلام في الاتحاد السوفيتي ـ رغم كل شيء ـ لم يمت وإنما لا يزال ينبض بالحياة وأن الشعوب المسلمة لا تزال تتنفس الإسلام وتتمسك بعقيدتها وتمارس شعائر دينها بأساليب خفية[١].

ثانيا: سبل بقاء المسلمين في ذلك الحال:

وباستعراض تلك الأمثلة التي لم نذكر من أمرها سوى اليسير يتضح كيف استطاع المسلمون في تلك (المجتمعات غير الدعوية) الثبات والصمود في وجه محاولات طمس الهوية واستئصال الدين من خلال أمرين بعد توفيق الله :

الأول: الاستخفاء بالإيمان والعبادة: حيث يشرع للمسلم ألا يعلن إسلامه ما دام سيتعرض لأذية ويكفي إسلامه سرا كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ ﴾[٢]، هذا الرجل مؤمن بنص القرآن مع أنه كان يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خوفا على نفسه، وفي قصة إسلام أبي ذر قال له الرسول ﷺ: يا أبا ذر اكتم هذا الأمر (أمر الدعوة وأمر إسلامه)[٣]. وفيه دليل على جواز كتم الإيمان لمصلحة أو

---

(١) انظر: التحدي الصهيوني في إطاره التاريخي ـ د. محمد يوسف عدس ص/ ٣٣ .
(٢) سورة غافر، الآية ٢٨ .
(٣) تقدم تخريجه .

خشية ضرر ونحو ذلك .

ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ ﴾[2] وهي تقية وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ إلى قوله ﴿ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾[3].. قال البخاري: «فعذر الله المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك ما أمر الله به والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به وقال النبي ﷺ: « الأعمال بالنية»[4] فقد ذكر المفسرون في شأن نزول الآية أمورا تتقارب معناها وإن اختلف أشخاصها وأمكنتها، قال ابن حجر: والمشهور أن الآية المذكورة نزلت في عمار ابن ياسر كما جاء من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ﷺ قال «أخذ المشركون عمارا فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكى ذلك إلى النبي ﷺ فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا

(١) سورة النحل، الآية ١٠٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٨ .

(٣) سورة النساء، الآيات ٩٧ ـ ٩٩ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإكراه باب: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ .

بالإيمان، قال فإن عادوا فعد»[١]. فنزلت الآية. والآية دالة على جواز إظهار غير ما يبطن من دون قصده عند الضرورة، ومسوغ ذلك خوف الضرر على النفس أو ما يتصل بذلك.

ومن ناحية أخرى الآية وإن اختص مضمونها بمسألة الكفر والإيمان إلا أن حكمها جار في غيرها بطريق الأولى.. فإذا جاز الاستسرار في هذه المسألة المهمة جاز في غيرها.

وجاء عن النبي ﷺ ما يدل على مشروعية الاستسرار في العبادة في أحوال خاصة فعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «أحصوا لي كم يلفظ الإسلام؟ قال فقلنا: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الست مائة إلى السبع مائة؟ قال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا».

قال فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا»[٢].

قال النووي رحمه الله وأما قوله: «ابتلينا فجعل الرجل لا يصلي إلا سرا» فلعله كان في بعض الفتن التي جرت بعد النبي ﷺ فكان بعضهم

---

(١) قال ابن حجر: وهو مرسل ورجاله ثقات وأخرجه عبد بن حميد من طريق بن سيرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي عمار بن ياسر وهو يبكي فجعل يمسح الدموع عنه ويقول أخذك المشركون فغطوك في الماء حتى قلت لهم كذا إن عادوا فعد» ورجاله ثقات مع إرساله أيضا وهذه المراسيل تقوي بعضها ببعض. فتح الباري ١٢/٣١٢.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الاستسرار بالإيمان للخائف.

يخفي نفسه ويصلي سرا مخافة من الظهور والمشاركة في الدخول في الفتنة والحروب[١].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله حول ذلك: «فإن المؤمن المستضعف هناك قد يكتم إيمانه واستنانه، كما كتم مؤمن آل فرعون إيمانه، وكما كان كثير من المؤمنين يكتم إيمانه حين كانوا في دار الحرب»[٢] [٣].

الثاني: الاستخفاء بالدعوة إلى الله: حيث يشرع في هذه الحال وفي مثل تلك الأنظمة (المجتمعات غير الدعوية) الاستخفاء بدعوة الناس إلى الله تعالى وسيرة النبي ﷺ في تلك المرحلة تفتح أمام الدعاة خيارات متعددة تتناسب مع الظروف المقاربة لها بمرونة في معالجة أمورها ومواجهة

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم ـ للنووي ١/١٨٠ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمة ٤/١٤٩ .

(٣) وسرد مظاهر استخفاء المسلمين في المثالين السابقين يخرج بالبحث عن مقصوده ذكر الدكتور علي المنتصر الكتاني أنه التقى في كوبنهاجن (الدنمارك) بتاريخ ١٩٧٣/١١/٥م أحد المهاجرين من الأندلس وهو من مواليد برشلونة ونشأ بها وأسلم سنة ١٩٦٩م، وقد قال عن سبب إسلامه: كنت طفلا صغيرا عند احتضار جدتي، فجذبتني إليها، وهمست في أذني قائلة: إن الدين النصراني ليس ديننا وليس هو الدين الحق، عندما تكبر حاول أن تعرف دينك. فلما كبرت درست تاريخ أسبانيا، وفهمت قصد جدتي، فتعلمت الدين الإسلامي، واقتنعت به، وأعلنت إسلامي في باكستان، حيث أمضيت سنتين لأتقن تعليمي. «متابعات ثقافية» ـ عبدالجبار الرفاعي .

أحداثها[١] ليتمكن الدعاة على قدر وسعهم من بناء قاعدة صلبة تحمل هذا الدين، وتحافظ على ما لدى المستجيبين من أمور العقيدة والشريعة والأخلاق وذلك وفق عدة ضوابط .

وبهذا يعلم أنه إذا خشي المسلمون على أنفسهم ودينهم في (مجتمع غير دعوي) فإنه يسعهم بلا ريب الاستخفاء وأن يتغشاهم الاستسرار بإيمانهم ودعوتهم إلى حين يأتي أمر الله بالفرج .

الفرع الثاني: الاستخفاء بالدعوة في (المجتمات غير الدعوية) مشروع بضوابط:

ذكرنا فيما سبق أن الاستخفاء بالدعوة في مجتمع غير دعوي مشروع وذكرنا بعض الأمثلة لمجتمعات غير دعوية كانت تهدف إلى استئصال الإسلام وإبادة أتباعه على مدى عشرات السنين. إلا أن من المهم إبان الاستخفاء بالدعوة في ظل الظروف والأحوال المذكورة أمور ينبغي مراعاتها منها ليكون الاستخفاء في إطار المشروع :

أولا: أن يكون العمل الدعوي منضبطا بالحكمة وموزونا بميزان الشرع، إذ الحماسة وحدها لا تكفي بل لا بد أن يكون العمل خالصا لله تعالى صوابا على وفق ما جاء به رسول الله .

ثانيا: ألا يتداخل الاستخفاء بالدعوة مع التحزب الذي ورد النهي

---

(١) انظر: عثرات وسقطات ـ زهير سالم، ص/ ٣٠ .

عنه فقد قامت دعوة النبي ﷺ في مرحلة الاستخفاء على الشمول والعالمية.

وأما التحزب فأمر آخر وذلك لأنه وليد التفرق وسبب في ضعف الأمة خاصة في ظل الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام..»[2].

ثالثا: أن يكون الاستخفاء بالدعوة قيادة وريادة وتوجيها وإرشادا، للعلماء الراسخين، باعتبارهم الذين يقودون الناس بكتاب الله وسنة رسوله وبعد نظرهم في فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد، وما لم يكن الأمر كذلك فإن الدعوة ستنحرف عن مسارها إلى مسارات الله أعلم بها [3].

رابعا: أن يكون الاستخفاء بالدعوة في ظل الظروف المشار إليها تحت الوسع والقدرة وإلا فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها قال شيخ الإسلام: «والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان»[4].

---

(١) سورة الروم، الآيتان ٣١، ٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جبير بن مطعم، كتاب: فضائل الصحابة، برقم: ٢٥٣٠.

(٣) انظر: العلاقة بين العلماء والناس ـ د. سيد محمد ساداتي، ص/١٠٨.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمة ـ جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وابنه ١٣/٩٦٤.

خامسا: أن يكون الاستخفاء بالدعوة مسترشدا ومستنيرا بسمات استخفاء النبي ﷺ بالدعوة وهو ما تعطرت به ورقات هذه الدراسة حتى يكون له ثمرته وفائدته المرجوة .

الخاتمة:

بنهاية هذا المبحث تكون الدراسة قد أجابت بحمد الله تعالى عن كل التساؤلات التي أثيرت في نطاق موضوع استخفاء النبي ﷺ بالدعوة إلى الله في العهد المكي، وانتهت إلى ما ستجمله في النتائج الآتية .

نتائج الدراسة:

١- استخفاء النبي الكريم ﷺ بالدعوة هو مرحلة من مراحل الدعوة وهي ثابتة من خلال النصوص والأخبار على نحو ما ذكر، واستمرت ثلاث سنوات حيث طويت مرحلة الاستخفاء وابتدأت مرحلة الجهر بالدعوة .

٢- لم يكن استخفاء النبي ﷺ بالدعوة استخفاء مطلقا، بل كان استخفاء له سماته العامة والخاصة، ومتميزا بالحكمة والبصيرة، وهو ما تم الحديث حوله في طيات هذه الدراسة .

٣- كان الاستخفاء بالدعوة يقوم على الدعوة الفردية بوسيلة القدوة الحسنة، والقول المباشر الذي كان يتسم بأسلوب النصح، وتم الاقتصار على ذلك بناء على ما اقتضته طبيعة الاستخفاء .

٤- أن الاستخفاء بالدعوة بكامل تفاصيلها التي جاءت في الدراسة مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله انتهت بقوله ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾(٢) ولهذا فإن الاستنان بدعوته في العصر الحاضر مناط بمرحلة (الدعوة الجهرية) إذ هي الأصل وهو ما استقر عليه التشريع الإلهي هذا من جهة. من جهة أخرى العلة التي لأجلها كان (الاستخفاء بالدعوة) نجدها منتفية في العصر الحاضر في الجملة، باعتبار انتشار الإسلام اليوم وظهور مبادئه علنا على مرأى ومسمع من العالم خاصة في ظل وسائل الاتصال المتقدمة التي تصل بالدعوة إلى كل مكان دون تبعات أو خوف من وأد الدعوة كما كان في بداية الدعوة.

٥- إذا توفرت ظروف مقاربة للظروف التي مر بها النبي ﷺ في تلك المرحلة وهذا محتمل في البلاد التي تتخذ سياسة (المجتمعات غير الدعوية) بأشكالها وأطيافها وهو ما حدث في الماضي كما تقدم، وسيحدث أيضا في آخر الزمان فقد جاءت الإشارة إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣.

بدأ غريبا..»[١]، وبناء عليه فالاستخفاء بالدعوة حينئذ مشروع في حدود مسلك الرسول ﷺ، بهدف مسايرة حال التضييق والتنكيل الذي قد تلقاه الدعوة وأتباعها مما يجعلها في أمان من الصدام لتتمكن الدعوة من البقاء حتى يتهيأ لها الانتقال من حال الضعف إلى حال القوة في الجانب الديني، كما فعل ﷺ، ولله عاقبة الأمور.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، برقم: ٢٠٨.